

سلسلة كراسات قبطية
العدد السادس - أكتوبر ٢٠١٥

الموالد القبطية

مولد الأنبا شنودة نموذجًا

أشرف أيوب معوض



إهداء

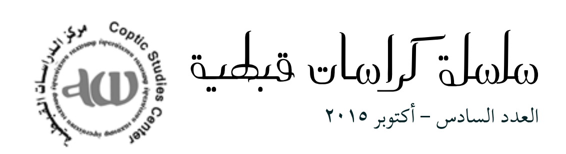
إلى أمي

التي ما زالت توقد شموع القديسين، وهي تصلي من أجلي.

وإلى أبي

الذي يحمل وجهه ملامح الأيقونة، وتفيض من يديه البركة.

أشرف أيوب معوض


سلسلة كراسات قبطية
العدد السادس – أكتوبر ٢٠١٥
Coptic Studies Center
مركز الدراسات القبطية

الموالد القبطية

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

معوض، أشرف أيوب، ١٩٧٠–

الموالد القبطية : مولد الأنبا شنودة نموذجًا / أشرف أيوب معوض. – الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، مركز الدراسات القبطية، 2015.

ص. سم. (سلسلة كراسات قبطية ؛ 6)

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

تدمك 0–337–452–977–978

1. شنودة، القديس، حو. ٣٤٨–٤٦٦. 2. الموالد.3 . الأقباط –– مصر.4 . الاحتفالات الدينية المسيحية. أ. العنوان. ب. السلسلة.

ديوي –394.266 2015780607

ISBN: 978-977-452-337-0

رقم الإيداع:2015/21437

المحتوى

افتتاحية

انطلاقًا من سياسة مكتبة الإسكندرية في حفز وتشجيع الباحثين الجادين على نشر إنتاجهم العلمي المتميز وإتاحته للجمهور، وتأكيدًا على أهداف المكتبة في إرساء مفاهيم التعايش والتسامح وتعميق روابط الجماعة الوطنية المصرية من خلال البحث العلمي والدراسات الرصينة الجادة.. يأتي صدور هذه السلسلة الجديدة «كراسات قبطية»، والتي تنضم لباقة السلاسل والدراسات العلمية الهامة التي تصدرها المكتبة في مجالات متخصصة عديدة.

إن صدور هذه السلسلة يحقق واحدًا من الأهداف الرئيسية التي دفعت المكتبة لاستحداث «مركز الدراسات القبطية»؛ وهو التأكيد على أن التراث عمومًا بكل طبقاته هو شأن وطني عامٌّ غير مرتبط بعقيدة دون غيرها. فالتراث القبطي، شأنه شأن الفرعوني والإسلامي، هو تراث أنتجه كل المصريين؛ وبالتالي فتسجيله وتوثيقه ونشره والحفاظ عليه هو واجب وطني، ومهمة يجب أن يضطلع بها كلٌّ من يؤرقه ماضي ومستقبل هذا البلد.

لقد عمد القائمون على هذه السلسلة إلى أن تملأ إصداراتها فراغًا كبيرًا في الذاكرة والثقافة الوطنية المصرية؛ حيث ستتوالى أجزاؤها تباعًا لتلقي الضوء على مجالات الدراسات القبطية المختلفة، كالعمارة والفنون والآثار واللغة القبطية وغيرها، بالاعتماد على المتخصصين في هذه المجالات، وذلك بأسلوب سهل بسيط مختصر ومركز أيضًا؛ حتى يحقق الفائدة المرجوة، سواء للدارسين أو للمهتمين عمومًا بهذا المجال الذي لا يزال في طور التكوين.

«إن مكتبة الإسكندرية بهذه السلسلة الجديدة لهي تضع لبنة وتؤسس مرحلة جديدة تدفع بمزيد من الاهتمام العلمي بهذا المجال الحيوي وتلك الحقبة الهامة من تاريخ وتراث مصر الثري عبر آلاف السنين، والتي لم تنل قدرًا كافيًا من الدراسة والبحث، ذلك رغم أن التراث القبطي يزخر حضاريًّا وتاريخيًّا بإنتاج فكري وعلمي واجتماعي فريد ما زال كثير منه قائمًا ومحفوظًا في العادات والتقاليد والاحتفالات

الدينية والموسيقى والشهور القبطية الزراعية وغيرها من المظاهر التي يشترك فيها ويمارسها المصريون جميعًا، بصرف النظر عن انتماءاتهم العقائدية أو الثقافية».

والمكتبة تأمل في أن تكون هذه السلسلة وغيرها من الإصدارات القادمة والأنشطة التي يتبناها مركز الدراسات القبطية، حافزًا ودافعًا للمراكز البحثية المتخصصة والهيئات والجهات المهتمة بتراث مصر العريق، على زيادة الاهتمام والمشاركة مع المكتبة في مشروعات توثيق وتسجيل ونشر هذا التراث؛ وذلك تأكيدًا على دور المكتبة ورسالتها في حفظ ذاكرة مصر الوطنية عبر العصور.

د. إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية

مقدمة

يلقي هذا الكتيب الضوء على العمارة المسيحية المبكرة كمدخل لدراسة العمارة القبطية؛ حيث يمكن فهم خصوصية العمارة القبطية بعد استيعاب القواسم المشتركة وأوجه التمايز بين العمارة المسيحية المبكرة في كافة أرجاء البلاد التي انتشرت بها المسيحية، والتي كانت خاضعة في هذه الفترة للإمبراطورية الرومانية.

عرفت مصر الفرعونية أنواعًا من الاحتفالات الدينية الخاصة بالآلهة آمون وإيزيس وغيرهما من الآلهة المحلية. وقد كان يقدم إلى هذه الآلهة النذور والأضاحي والقرابين، وعُرف التقرب لهذه الآلهة من العامة والخاصة لحل مشاكلهم وإقامة الصلوات لهم وإقامة الاحتفالات الشعبية الخاصة بهم.

ولم يستخدم المصريون مصطلح الموالد؛ وإنما استخدموا لها مصطلحًا آخر هو الأعياد التي تعددت في مصر القديمة كثيرًا وخاصة في عهد الدولة الحديثة، فهناك بالإضافة إلى الأعياد الدينية لمواكب آمون وأعياد الآلهة المختلفة أعياد الجبانة وأعياد فرعون، وكذا الأعياد الزراعية كعيد رأس السنة وعيد الحصاد وعيد الفيضان، وكانت معظم هذه الأعياد في بادئ الأمر ذات طابع ديني، ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى مناسبات لإقامة الاحتفالات الكبيرة والمواكب الضخمة.

وتصور لنا النقوش التاريخية تفاصيل بعض الأعياد، مثل: عيد زيارة آمون لمعبد الأقصر؛ فتصور خروج موكب الفرعون تتقدمه القرابين التي سوف تُذبح احتفالًا بالعيد، كما يشترك في الاحتفال الجنود والفرق الموسيقية، وتحمل أربع سفن على أكتاف رجال الدين إلى أن تصل إلى النيل فتوضع في السفن الكبيرة، ومنها: السفينة الخاصة بآمون وقد ازدانت، ويتبعها بعد ذلك سفن الكهنة ورجال الجيش والموسيقى والمغنين والمغنيات والراقصات، وينتهي الاحتفال في معبد الكرنك بتقديم القرابين وذبحها.[١]

١- فاروق أحمد مصطفى، **الموالد: دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر**، ط. ٢، دراسات في المجتمع المصري ([القاهرة]: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١): ٧٩.

وفي العصر المسيحي عُرفت الاحتفالات بأعياد القديسين، وبدأت مثل هذه الاحتفالات أصلاً على أساس تكريم القديس برفع الصلوات وإقامة القداسات وقراءة سيرته بالتفصيل للتشبه بقدوته الصالحة، ثم بتقديم النذور من شموع وبخور وأدوات تلزم للكنيسة إلى جانب نحر الذبائح لإطعام الفقراء والمحتاجين. ولكثرة العدد الذي تحتاجه هذه الألوف من أماكن للمبيت ومن مأكولات ونحر للذبائح وبيع لاحتياجات الزوار والنذور وخلافه...، وبالإضافة إلى طبيعتها الدينية، أخذت مظاهر مادية تجارية. وهو ما لم تقره الكنيسة نفسها لدرجة أن القديس الأنبا شنودة – الذي أجريت على مولده هذه الدراسة، والمتنيح منذ ١٦٠٠ سنة – ألقى عظة قوية ندد فيها بمظاهر المولد من: بيع وشراء، ومأكل ومشرب، وإقامة الألعاب والسباقات والرقص والأغاني، وهو يؤكد ضمنيًّا وجود مظاهر المولد في القرن الخامس الميلادي.

وفي العصر الإسلامي الأول كانت الاحتفالات قاصرة على المناسبات الدينية كعيد الفطر وعيد الأضحى وغيرها. وتغيرت هذه الاحتفالات بدخول الفاطميين إلى مصر، وظهرت الاحتفالات بالأولياء منذ هذا العهد، بل أدخلوا أعيادًا جديدة؛ ويرجع ذلك إلى نشر الدعوة الفاطمية ومحاولة الدعاية لها ولهؤلاء الحكام الجدد.

وقد عُرفت أعياد القديسين في العصر العربي باسم الموالد، وهو اسم لا ينطبق على الواقع؛ لأن الاحتفال غالبًا ما يكون بذكرى استشهاد أو موت القديس، وهو اليوم الذي أتم فيه القديس جهاده.

إن تاريخ الكنيسة القبطية مليء بسير القديسين ومعجزاتهم وبركاتهم، وكلما اشتهر قديس أو شهيد في منطقة أو مدينة، يتوافد على كنيسة تلك المدينة جموع كثيرة من الشعب للاحتفال بذكراه.

في هذا الكتاب

يحتوي الكتاب على ستة فصول بالإضافة إلى الخاتمة وملحقين. يعرض الفصل الأول الإجراءات المنهجية للدراسة فيتناول الدراسات السابقة وأهمية البحث وهدف البحث بالإضافة إلى المناهج التي أسهمت في جمع المادة الميدانية للدراسة وتحليلها وبالتالي للوصول إلى نتائج الدراسة، مثل: المنهج الفولكلوري بأبعاده الأربعة: التاريخي، والجغرافي، والاجتماعي، والنفسي، كما تمت الاستعانة بالمنهج الأنثربولوجي في الجمع الميداني؛ حيث استخدمت أدوات الملاحظة، والملاحظة بالمشاركة والمقابلات مع الآخرين، كما تمت الاستعانة بالتسجيلات الصوتية والصور الفوتوغرافية، وكذا أيضًا تسجيلات الفيديو، واستعانت الدراسة أيضًا بالمنهج التاريخي للوقوف على تاريخ نشأة الموالد المصرية.

أما الفصل الثاني فيعرض تاريخ نشأة الموالد القبطية وطبيعتها في الفترة من انتشار المسيحية في مصر حتى مجيء الإسلام. وقد ناقش هذا الفصل وجود الموالد المصرية في القرن الخامس الميلادي بصورتها الحية القريبة الشبه من واقعنا الحالي، ويناقش هذا الفصل أيضًا أهمية الموالد القبطية.

أما الفصل الثالث فيتعرض إلى بعض المفاهيم النظرية التي لها علاقة بالمولد المسيحي، مثل: مفهوم المعجزة، ومفهوم البركة.

وفي الفصل الرابع يعرض حياة القديس الأنبا شنودة، بداية من ميلاده حتى نياحته ونظام الرهبنة، كما يعرض فكرة عن فن العمارة في الدير الأبيض وطريقة بنائه على طريقة بناء المعابد المصرية القديمة.

أما الفصل الخامس فيتعرض إلى العمل الميداني في هذا البحث، ويتعرض إلى كلِّ مظاهر الاحتفال بمولد القديس الأنبا شنودة.

وفي الفصل السادس يعرض الأغاني والحكايات الشعبية المرتبطة بالقديس، والتي قام الباحث بجمعها وتسجيلها من زائري المولد.

وفي الخاتمة يعرض الباحث نتائج البحث، بالإضافة إلى ملحقين؛ يعرض الأول تقارير الزيارات الميدانية، والثاني الصور، ثم قائمة بالمراجع والإخباريين.

الفصل الأول

الإجراءات المنهجية

- الدراسات السابقة
- أهمية البحث
- المناهج
- مجتمع البحث

الدراسات السابقة

١- دراسة إدوارد وليم لين[١]

انتقل لين إلى مصر في نهاية عام ١٨٢٥، وعقد العزم على دراسة اللغة العربية وطبائع الشعب المصري على حدٍّ سواء؛ ولذا ارتدى الزي التقليدي المصري. وكان هدفه هو تعريف العالم بالمصريين فجاب طوافًا رحالاً في طول مصر وعرضها، ونشر كتابه وطبعه في لندن عام ١٨٣٦، ويعد من أهم الكتب التي تتحدث عن العادات والتقاليد في مصر؛ فهو كتاب أشبه بوصف مصر.

وقد تحدث عن الموالد في الفصل العاشر بقوله:

يكرم المصريون كلَّ ولي من أوليائهم تقريبًا باحتفال شعبي يعرف بالمولد، فيزورون في مثل هذه المناسبات أضرحة هؤلاء الأولياء، ويعتبرون زيارتهم واجبًا ووسيلة فضلى للحصول على بركة خاصة، وهم أيضًا يخشون أن يحل بهم سوء طالع إن هم أهملوا الزيارة.

ويشير وليم لين إلى أهم مولدين تشهدهما القاهرة إلى جانب مولد الرسول (ﷺ) هما: مولدا الحسين والسيدة زينب، وقد تحدث عن ثلاثة موالد تقام لـ (السيد البدوي)، ومولد لـ (السيد إبراهيم الدسوقي) وتعتبر هذه الموالد من الأعياد الشعبية إلى جانب كونها من الاحتفالات الدينية.

وقد أشار في نفس الفصل أن المسلمين والمسيحيين واليهود يتبنون خرافات بعضهم البعض، فقد يستعين المسلم مثلًا في مرضه برجال دين مسيحيين ويهود ليصلوا له، وكذا الأمر بالنسبة إلى المسيحيين واليهود الذين غالبًا ما يستجيرون في الحالات نفسها بالأولياء المسلمين حتى يبرؤوا من أمراضهم. وقد تحدث عن أشهر طرائق الدراويش في القاهرة، وهي: الرفاعية والقادرية والأحمدية والإبراهيمية.

والأهمية الخاصة لدراسة لين كما ذكر الدكتور فاروق أحمد مصطفى أنها دراسة وصفية إثنوجرافية قامت على أساس تسجيل ملاحظاته عن الشعب المصري في حياته اليومية.

١- إدوارد وليم لين، **عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم: مصر ما بين ١٨٣٣-١٨٣٥**، ترجمة سهير دسوم (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١).

٢- دراسة وينفرد بلا كمان[١]

قدمت الآنسة «وينفرد بلاكمان» هذا الكتاب بعد إقامة في مصر دامت ست سنوات، كان هدفها هو وصف حياة سكان وادي النيل المحدثين بأبسط ما يمكن، وقد نشرت هذا الكتاب سنة ١٩٢٧.

وقد تناولت في هذا الكتاب في الفصل الخامس عشر المشايخ المسلمين والقديسين الأقباط، وأشارت في هذا الفصل إلى أن بعض هؤلاء الرجال والنساء المقدسين يعظمون في كل أنحاء البلاد. وقد أصبحت الطقوس الخاصة بهم جزءًا من الديانة الشعبية العامة، وهناك العديد من القديسين والمشايخ المحليين الذين غالبًا ما يجتذبون المريدين من مناطق خارج حدود قراهم.

وأشارت في كتابها إلى أن كثيرًا من المعتقدات والطقوس المرتبطة بالقديسين تشابه تلك المتعلقة بالمشايخ المسلمين، وأشارت إلى الشموع كشكل مفضل للنذور لدى المسلمين والمسيحيين. وأشارت كذلك إلى أن الموالد ليست مناسبات دينية فحسب؛ وإنما هي مناسبات اجتماعية للتسلية والاستمتاع بالموسيقى والألعاب وصندوق الدنيا والمراجيح، إلى أن الذكر نوع من الرقص الديني الذي يؤديه الرجال والفتيان الكبار فقط وذلك في الفصل السادس عشر (بعض الاحتفالات السنوية). وقد تناولت أيضًا بعض الموالد المسيحية كالاحتفال السنوي الذي يقام تكريمًا للقديس مارجرجس، وأشارت إلى أن الذين يتجمعون داخل حرم الدير تتساوى فيهم أعداد المسلمين مع أعداد المسيحيين، وفيما عدا الذكر فإن مراسم الاحتفال تتشابه مع الاحتفالات الإسلامية (الخاصة بالموالد).

٣- دراسة مكفرسون[٢]

نشر مكفرسون كتابه (الموالد في مصر) في عام ١٩٤١ بالقاهرة، وقد كان هذا العمل نتاج أربعين عامًا من الدراسة، وبهذا الكتاب قد دفع مكفرسون لشعب مصر الدين الذي كان يعترف به بحرية

١- وينفرد بلاكمان، **الناس في صعيد مصر: العادات والتقاليد**، ترجمة أحمد محمود، ط. ٢ (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٥).

٢- ج. و. مكفرسون، **الموالد في مصر**، ترجمة وتحقيق عبد الوهاب بكر، الألف كتاب الثاني ٢٩٤ ([القاهرة]: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩).

من أجل الكرم والعطف الذي تمتع به على أيديهم على مدى نصف قرن. وقد قسم مكفرسون كتابه إلى مقدمة طويلة وخمسة فصول. وتحدث في الفصل الأول عن الموالد وأصولها وأغراضها، وتحدث في الفصل الثاني عن أماكن الموالد ومواعيدها ومواسمها، وفي الفصل الثالث ناقش الجانب الديني للموالد، وأما الفصل الرابع فقد خصصه للحديث عن الجانب الدنيوي لها، ويعد الفصل الخامس فصلاً ضخمًا (٢٢١) صفحة جعله المؤلف بعنوان (الموالد مظاهرها الشخصية). وفي هذا الفصل أرفق المؤلف تقويمًا للمواعيد التقريبية، وخرائط قطاعية للقاهرة حدد فيها مواقع الموالد، ثم أتبع ذلك بدراسة وصفية مطولة لمائة وستة وعشرين مولدًا إسلاميًّا وقبطيًّا في القاهرة وبعض الأقاليم الريفية.

وقد ربط مكفرسون بين ظاهرة ارتباط أغلب الموالد بالأشهر القبطية والاحتفالات بأعياد بعض الآلهة القديمة، أيضًا بعض مظاهر الاحتفال في موالد معينة وصلتها بمظاهر مشابهة في احتفالات مصرية قديمة. ورأى في ذلك أن المصريين المحدثين إنما يقومون بحركة إحياء الثقافة المصرية القديمة.

وقد كان مكفرسون متعصبًا لفكرة تغلب عليه كما أوضح الدكتور فاروق أحمد مصطفى، وهي أن القديم دائمًا أفضل من الحديث، وربما تأثر في ذلك برجال الطرق الصوفية الذين صادفهم واختلط بهم؛ لأن مبدأ (القديم على قدمه) هو أحد المبادئ التي يعتنقها رجال الطرق الصوفية في مصر، وهذا المبدأ لا يتمشى مع التطور والتغير الذي تسير فيه البلاد.

وقد أشار في أكثر من موضع في كتابه إلى أهمية المحافظة على التقاليد الموروثة، وأشار بشيء من الأسى إلى تدخل الحكومة في تكسير القوارب المستخدمة في الاحتفالات بمولد السيد عبد الرحيم القنائي؛ بدعوى أن ذلك لا يتمشى مع الدين وأنه موروث من العادات المصرية القديمة.

وقد حرص مكفرسون على جعل عمله دراسة تسجيلية لحياة المصريين من خلال دراسة الموالد.

وقد أشار في الفصل الأول - بعنوان الموالد: أصلها وأهدافها - إلى أن كلمة مولد تنطبق على الاحتفالات الإسلامية أكثر من المسيحية؛ لأن الأولى تقام على أساس تفضيل تاريخ مولد الشيخ، في حين تقام الأخيرة على أساس اليوم المفترض للوفاة (يوم ميلاده في الحياة الخالدة).

وقد أشار أيضًا في نفس الفصل إلى أن موالد هذه الأيام المصرية تحتفظ بممارسات تنحدر من العصور الفرعونية، كالشعائر عند مقابر القديسين الأقباط التي تمتد لقرون قبل الإسلام؛ فقد أدت إلى (المولد المصري) الذي نعرفه الآن.

وقد أشار في موضع آخر من كتابه إلى مظاهر التسامح عند المصريين، كما أشار إليه من قبل وليم لين، ووينفرد بلاكمان بقوله: لم أجد مكانًا يمجد فيه المسيحيون والمسلمون بطوائفهم المختلفة، مساجد وكنائس بعضهم البعض علنًا بصداقة عن طيب خاطر ويطلبون البركة من أضرحة بعضهم البعض إلا في مصر.

وقد أشار أيضًا إلى الجانب العلماني للاحتفالات الدينية، وأن المولد لا يمكن أن يكون احتفالاً دينيًّا خالصًا؛ لأنه لا ديانة تعيش في قلوب الناس يمكن أن تبقى في القلوب دون أعياد لها.

٤- دراسة الدكتور فاروق أحمد مصطفى[١]

وتقع هذه الدراسة في ٣٦٥ صفحة من القطع الكبير (مكونة من ستة فصول بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة وثلاثة ملاحق). وتتناول ظاهرة الموالد بصفة عامة، كما تتناولها بوصفها ظاهرة شعبية من النواحي التاريخية والاجتماعية. ويقدم في مقدمة الكتاب تعريفًا إجرائيًّا للموالد بأنها (الاحتفال بيوم ميلاد ولي من أولياء الله؛ لأنه في الحقيقة لكل ولي أيام كثيرة يحتفل فيها بذكراه. وتستمر هذه الاحتفالات غالبًا ثلاثة أو أربعة أيام، وقد تصل إلى أسبوع، وعادة ما يختتم الاحتفال بالمولد بليلة أخيرة يطلق عليها اسم الليلة الكبيرة، وهي الليلة الرئيسية في الاحتفال وبانتهائها ينتهي الاحتفال، وقد يستمر الاحتفال بالموالد فترات تزيد على ثلاثة أسابيع بالنسبة للموالد الكبيرة مثل مولد الإمام الحسين والسيدة زينب).

ويعرض الفصل الأول لبعض المفاهيم الرئيسية للموالد والشعائر وعلاقتها بالمعتقدات، وتفسير بعض الشعائر في ضوء الدراما الفولكلورية، وأيضًا علاقة الشعائر بالأساطير. وأوضح في الفصل الأول أيضًا بعض المفاهيم الخاصة بالعادات الشعبية، وأنه عندما تستمر العادات في الممارسة لفترات طويلة تصبح تقليدًا.

وفي الفصل الثاني عالج المؤلف تاريخ الموالد في مصر من خلال مظاهر الحياة الدينية في مصر الفرعونية. ويرى أن وظيفة الاحتفالات الدينية في مصر القديمة كانت تؤدى من أجل هدف ديني وهو تقديس الفرعون نفسه؛ أما وظيفتها في العصر الإسلامي فكانت تقام على أساس أنها أعياد

١- مصطفى، **الموالد**.

واحتفالات دينية، ثم تغير هذا المفهوم بدخول الفاطميين مصر؛ وأصبحت الموالد تقام للدعوة إلى تقديس أهل البيت.

وفي الفصل الثالث تناول موضوع الموالد والشعائر، وقد جاء هذا الفصل وصفًا للشعائر الخاصة بالموالد التي حددت بزيارة الضريح والذكر والمواكب الخاصة بالموالد. وتناول هذا الفصل أيضًا ثلاث أساطير (حورس – مارجرجس – الولي إبراهيم الدسوقي)، وأوضح التشابه في الأساطير الثلاثة، الذي ينطوي على فكرة البطل الأسطوري أو البطل الشعبي.

ويعرض في الفصل الرابع الجوانب الفولكلورية في الاحتفال بالمولد، وهي: الأغنية الشعبية، والموسيقى الشعبية، والأمثال الشعبية الخاصة بالمولد، والحكايات الشعبية، والألعاب الشعبية، والأزياء الشعبية. وأوضح أهمية الموالد في المحافظة على هذه الممارسات الشعبية ومحافظتها على عناصر التراث الشعبي.

وفي الفصل الخامس أبرز الكاتب عوامل استمرارية الموالد، فقد أثبتت الدراسة أن للموالد جذورًا تاريخية، وأنها احتفالات استمرت في الأعياد الدينية القديمة أو منذ تاريخ مصر الفاطمي واستمرت في العصر الحديث، وقد رفض الكاتب فكرة أن الموالد مخلفات ورواسب ثقافية كما رأى مكفرسون أن الموالد إحياء لتاريخ مصر القديمة.

وفي الفصل السادس عقد المؤلف مقارنة بين موالد مصر وموالد القديسين في بعض بلدان البحر المتوسط، وأوضح أوجه الاتفاق والاختلاف بين أنواع الموالد المختلفة، وفي خاتمة الكتاب موضحًا موضوع الإبقاء والإلغاء للموالد بتحليل الآراء المعارضة، واستخدامه لمنهج تحليل المضمون واعتماده على التحليل الكمي والكيفي للتوصل إلى النتائج الموضوعية. وفي نهاية هذا الجزء ملحق لأغاني المديح والأغاني الشعبية في الموالد، وآخر للحكايات الشعبية، وملحق آخر للتعريف ببعض الأولياء والقديسين.

وتعد دراسة الدكتور فاروق أحمد مصطفى من الدراسات الأكاديمية الهامة التي تناولت موضوع الموالد؛ حيث استخدم المناهج العلمية وأدوات البحث الرئيسية، ورغم من ذلك فإننا قد نختلف معه في نقطتين هما:

أولاً: عند تعريفه للمولد تعريفًا إجرائيًّا فإنه يذكر الاحتفال بيوم ميلاد ولي من أولياء الله.. وفي هذا يختلف عن موالد القديسين التي تحتفل فيه بيوم وفاة القديس وانتقاله (وهذه النقطة قد تنبه

إليها مكفرسون)، وكذلك موالد الصعيد فهي تقام بصفة دورية منتظمة وفقًا لتاريخ وفاة الولي من شهر شعبان العربي.

ثانيًا: برغم استخدامه المنهج التاريخي في تتبع ظاهرة الموالد، فقد تناول الاحتفالات الدينية في مصر القديمة، ثم انتقل مباشرة إلى العصر الفاطمي، ولم يشر إلى أية احتفالات يمكن أن توجد قبل مجيء الإسلام مصر أو قبل العصر الفاطمي أو قبل عصر الإخشيد، رغم تناوله في الكتاب موضوع الموالد المصرية (الإسلامية والمسيحية).

٥- دراسة سعاد عثمان[1]

تستهدف الدراسة الكشف عن ظاهرة تكريم الأولياء في المجتمع المصري من منظور وظيفي، من خلال تناول الظاهرة كنسق فرعي من النسق الثقافي العام للمجتمع المصري، يضم بداخله أجزاء وممارسات وطقوسًا مختلفة تشكل في تساندها وتوازنها وقدرتها على الاستمرار الظاهرة موضوع البحث.

وقد أظهرت الدراسة أن لظاهرة تكريم الأولياء العديد من الوظائف الظاهرة والكامنة: وظيفة دينية، واقتصادية، وترويحية، وفنية، وعلاجية، واجتماعية، وسياسية، وبعض الأنشطة المنحرفة والمحظورة. وقد تم اختيار حي الخليفة وهو جزء من نسق أعم هو مدينة القاهرة، التي تمثل جزءًا من نسق أكثر شمولاً هو المجتمع المصري.

وقد عالجت الدراسة علاقة الأنشطة الكلية المتصلة بالظاهرة بمعنى علاقة التفاعل والتساند الموجودة بين كافة الأنشطة الدينية، والاقتصادية، والترويحية... إلخ.

وأثبتت الدراسة تأثير التغيرات التي تطرأ على النسق العام في مكونات النسق الفرعي؛ فقد كان لارتفاع نسبة المتعلمين – كمثال – وزيادة الوعي الصحي أثرهما في توجه المرضى لمؤسسات الطب الرسمي كمستوى أول للعلاج، ثم لأضرحة الأولياء كمستوى ثانٍ في حالة الأمراض المزمنة

١- سعاد عثمان أحمد، **النظرية الوظيفية في دراسة التراث الشعبي: دراسة ميدانية لتكريم الأولياء في المجتمع المصري** (رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، ١٩٨١)؛ نشر ملخص لها في، انظر: محمد الجوهري، **دراسات في علم الفولكلور** (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٢).

أو المستعصية. وقد قامت الباحثة بمسح ميداني للكشف عن عدد الأولياء في حي الخليفة، فوجدت أنهم ما يقرب من ١٤٠ وليًّا ثم اختارت ١٥ وليًّا لإجراء الدراسة.

٦- دراسة عرفة عبده علي[١]

وهي دراسة عامة عن بعض الموالد المصرية بين الماضي والحاضر. ويرصد المؤلف خلالها بعض الموالد الإسلامية والمسيحية واليهودية، ويتوقف عند الاحتفال بالمولد النبوي الشريف متتبعًا مظاهر الاحتفال به عبر مراحل تاريخية مختلفة من العصر الفاطمي والدولة الأيوبية وعصر المماليك.

ويفرد المؤلف فصلاً خاصًّا عن التصوف يقدم فيه نشأة الطرق الصوفية في مصر. ومن خلال السرد الوصفي لمظاهر الاحتفال بالمولد يلاحظ الباحث أن الموالد بصفة عامة تمثل أهم مناسبات تجديد وتوثيق العلاقات بين أتباع الطرق الصوفية، وفي نفس الوقت مناسبة للترويح عند جماعات الشباب المترددين بغرض الترفيه والتسلية.

كما يلاحظ الباحث تشابه مظاهر الاحتفال بين الموالد الإسلامية والموالد المسيحية، ويلاحظ أيضًا التشابه الكبير في المعتقد الشعبي عند أبناء الطائفتين في معجزات وكرامات الأولياء والقديسين، ويعرف الباحث «الكرامة» بأنها الإشارة أو الرمز الذي يشير إلى تلك القدرة التي يستند إليها الاعتقاد في الأولياء.

ويشير الباحث في بداية دراسته المنشورة في مجلة القاهرة إلى أن المصادر التاريخية تجمع على أن مصر قد عرفت مظاهر الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية بدءًا من عصر الدولة الفاطمية. ولكننا في هذا لنا وجهة نظر مختلفة في أن الموالد المصرية كانت موجودة وبصورة حية في القرن الخامس الميلادي، وسوف نقوم بشرح وجهة النظر هذه في (تاريخ الموالد المسيحية) المقدمة في هذا البحث.

١- عرفة عبده علي، **موالد مصر المحروسة** (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٥)؛ منشور جزء منها أيضًا في، انظر: عرفة عبده علي، «موالد مصر المحروسة»، **مجلة القاهرة**، العدد ١٥٦ (نوفمبر١٩٩٥):٥٥.

أهمية البحث

ترجع أهمية البحث إلى دراسة الموالد باعتبارها ظاهرة فولكلورية تحافظ على التراث الشعبي، كما أنها مناسبات للترويح والتسلية والرواج التجاري والاقتصادي، كما أنها أيضًا تعمل على تدعيم الاعتقاد في القديسين.

ويرجع اختيار مولد القديس الأنبا شنودة الواقع في محافظة سوهاج إلى:

١- قلة الأبحاث والدراسات التي أُجريت حول موالد القديسين، وخاصة مولد الأنبا شنودة.

٢- تجلي ظاهرة تكريم القديسين، وخاصة القديس الأنبا شنودة في محافظة سوهاج (منطقة البحث).

٣- المولد الوحيد من بين الموالد المصرية كلها الذي يستمر الاحتفال به شهرًا كاملاً مما استحق الدراسة الميدانية.

٤- زيارة مولد القديس من جميع أنحاء القطر المصري.

٥- شهرة القديس وبطولاته ومعجزاته في المجتمع المحلي، وامتداد شهرته في جميع أنحاء القطر المصري.

٦- وجود دير أثري باسمه، بناه بنفسه هو وعدد كبير من الرهبان، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس الميلادي.

٧- انتماء الباحث إلى ثقافة ومكان مجتمع البحث.

هدف البحث

١- محاولة التعرف على تاريخ نشأة الموالد القبطية.

٢- تقديم صورة واضحة عن الممارسات الشعبية في المولد المسيحي.

٣- التعرف على العادات والمعتقدات الشعبية حول القديس.

٤- محاولة رصد مظاهر الاحتفال بمولد الأنبا شنودة.

٥- تتبع التغير في مظاهر الاحتفال بالمولد.

٦- ما الوظائف التي يحققها المولد؟

٧- التعرف على بعض المفاهيم النظرية المرتبطة بالمولد كمفهوم المعجزة ومصطلح البركة.

المناهج

وقد استخدمنا بعض المناهج التي أسهمت في جمع المادة الميدانية للدراسة وتحليلها، وبالتالي للوصول إلى نتائج الدراسة، مثل: المنهج الفولكلوري بأبعاده الأربعة التاريخي، والجغرافي، والاجتماعي، والنفسي. وتمت الاستعانة بالمنهج الأنثربولوجي في الجمع الميداني؛ حيث استخدمت أدوات الملاحظة، والملاحظة بالمشاركة، والمقابلات مع الآخرين، والاستعانة بالتسجيلات الصوتية والصور الفوتوغرافية، وكذا أيضًا تسجيلات الفيديو. واستعانت الدراسة أيضًا بالمنهج التاريخي للوقوف على تاريخ نشأة الموالد المصرية بداية من العصر الفرعوني والقبطي وانتهاء بالإسلامي.

مجتمع البحث

الدير الأبيض

١- يوجد الدير في منطقة كانت تسمى في العصر الفرعوني أدريبة، وتسمى بالمصرية (حات ربيت)، وبالقبطية (أثريبة) وهي غرب سوهاج.[١]

٢- في العصر الروماني المسيحي، يذكر أبو صالح الأرمني أن دير أنبا شنودة - ويسمى بالدير الأبيض ويقع في الجبل الغربي بسوهاج - به كنيسة شرحة تسع ألوف الأمم، وبها جسدا تلميذين من تلاميذ السيد المسيح، هما (برثولوماوس) و (سمعان القناني) من الرسل الاثني عشر، وبها جسد الأب (الأنبا شنودة)، ويصف أبو صالح هذا الدير فيقول: «وفي هذا الدير جوسق وحصن دائر يحيط به، وداخله بستان فيه من جميع الأشجار».

١- السيد أبو ضيف المدني، **تاريخ إقليم سوهاج** (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢): ٧.

ويقول المقريزي عنه: «إن هذا الدير كان في عهده أي في أيام المماليك غير آهل بالرهبان»، وقال عنه: «إنه خرب ولا توجد به إلا كنيسة، وذكر أيضًا أن مساحة الدير أربعة أفدنة وثلاثة أرباع فدان، ولم يبق منها في زمنه سوى فدان واحد.[١]

وفي العصر الحالي اعترف المجمع المقدس بإعادة الحياة الرهبانية لدير القديس العظيم الأنبا شنودة. وقد قرر المجمع المقدس المنعقد في جلسة يوم السبت ١٤ يونية عام ١٩٩٧م برئاسة البابا شنودة الثالث، الاعتراف بإعادة الحياة الرهبانية إلى دير القديس الأنبا شنودة.

وفي عصر البابا شنودة ضم أكثر من ١٤٠ فدانًا للدير، تسعين فدانًا حول الدير، وخمسين فدانًا خارج سور الدير، وتم استصلاح أكثر من مائة فدان وزراعتها، وتم عمل قلالي جديدة للرهبان.

ويوجد حاليًّا رهبنة منتظمة في الدير؛ حيث يوجد ١٤ راهبًا و٦ تحت الاختبار، وهناك كثير من الأنشطة للدير، مثل: معمل ألبان وتسمين عجول وورشة نجارة ومكتبة ومصنع بلاط وفرن.[٢]

التقسيم الإداري[٣]

تبعًا للتقسيم الإداري والتقسيم المحلي فإن الدير يتبع قرية أولاد عزاز التابعة لمركز ومدينة سوهاج. وهو ضمن عشرة نجوع وعزب تابعة لقرية أولاد عزاز، وهم: غريب – النجاجرة – سرحان – أبو حسين – القراقرة – القيصان – السمارنة – الدحالبة – الدقيش – دير الأنبا شنودة.

وتبلغ المساحة الكلية للقرية ككل حوالي ٢٣١٢ فدانًا. وعدد سكان القرية ١٦٨٤٦ نسمة في يناير ٢٠٠٦، وعدد سكان منطقة دير الأنبا شنودة ١١٢٠ نسمة في يناير ٢٠٠٦، وبالنسبة للخدمات الصحية توجد مجموعة صحية في القرية ككل. وبالنسبة للتعليم توجد ٩ مدارس ابتدائية، ٥ منها في قرية أولاد عزاز نفسها وموزعة في النجوع، ويوجد بالقرية ٢ مدرسة إعدادي، ومدرسة رياض أطفال، ويوجد بها وحدة اجتماعية، و٥ جمعيات أصلية، و٣ دور حضانة. ويوجد بها ٣ مراكز شباب. ويعمل معظم السكان بالزراعة بالإضافة إلى الوظائف الحكومية.

١- المدني، المرجع السابق: ٢٥.

٢- إخباري رقم (١).

٣- مجلس الوزراء المصري، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، «التقسيم الإداري لمحافظة سوهاج»، في **دليل التقسيم الإداري للمحافظات حتى مستوى الشياخة والقرية** (يونية ٢٠٠٦).

كنائس وأديرة باسم القديس

أ- محافظة سوهاج

١- دير الأنبا شنودة الأثري... الدير الأبيض بجبل سوهاج.

٢- دير الأنبا شنودة الأثري ... بلدة عربان بني واصل... مركز أخميم.

٣- كنيسة الأنبا شنودة ببلدتي الكشح، الباسكية... مركز البلينا.

٤- كنيسة الأنبا شنودة... ساحل طهطا، نزة، كوم غريب... مركز طهطا.

ب- محافظة قنا

١- دير القديس الأنبا شنودة... نقادة... مركز قوص.

٢- كنيسة الأنبا شنودة... أبنود والقارة... مركز قنا.

٣- كنيسة الأنبا شنودة... بهجورة... مركز نجع حمادي.

٤- كنيسة الأنبا شنودة... الطوابية، العزب، دشنا... مركز دشنا.

ج- محافظة أسيوط

١- كنيسة الأنبا شنودة... ببلاد الدوير (العزايزة)، الزرابي... مركز أبو تيج.

٢- كنيسة الأنبا شنودة... ببلدة النزلة المستجدة... مركز البداري.

د- محافظة القاهرة

١- كنيسة واحدة أثرية بمصر القديمة بجوار دير الشهيد أبو سفين للراهبات.

الفصل الثاني
الموالد القبطية في مصر

- تاريخ الموالد القبطية وطبيعتها
- أهمية الموالد

تاريخ الموالد القبطية وطبيعتها

تخبرنا معظم المصادر التاريخية أن بداية الموالد المصرية كانت في بداية العصر الفاطمي، ويقول عرفة عبده علي:

وتكاد تجمع المصادر التاريخية على أن مصر قد عرفت مظاهر الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية بدءًا من عصر الدولة الفاطمية، وأصبحت تلك الاحتفالات جزءًا من وجدان الشعب المصري حتى يومنا هذا.

ويشير الدكتور فاروق أحمد مصطفى إلى أن بداية الموالد في مصر ترجع إلى عصر الإخشيد ودخول الفاطميين مصر. ويمكن أن نرجع ظهور الاحتفال بالموالد في مصر إلى عصر الإخشيد، فقد كانت من المناسبات الاجتماعية الكبرى التي يشترك في إحيائها الحكام والشعب في الأعياد، فتقام وتمد الأسمطة ويخرج الناس إلى المتنزهات وهم يرتدون ملابسهم الجديدة. ولم يقتصر الأمر على الاحتفال بالأعياد الدينية الخاصة بالمسلمين؛ وإنما شارك المسلمون والمسيحيون في كثير من الأعياد حتى أصبحت أعيادًا قومية، وإذا كانت الاحتفالات بمصر في العصر الإسلامي الأول قاصرة على المناسبات الدينية، كالاحتفال بعيد الفطر، وعيد الأضحى وغيرها، فإن مثل هذه الاحتفالات قد تغيرت بدخول الفاطميين إليها، بل إن الاحتفالات بموالد الأولياء المسلمين والقديسين بدأت تظهر وربما لأول مرة في تاريخ مصر بشكل معين ومباشر.

فمن أهم الاحتفالات التي أقيمت: الاحتفال برأس السنة الميلادية، وأول العام الهجري، ويوم عاشوراء، ومولد النبي ﷺ ومولد علي بن أبي طالب، ومولد الحسن، ومولد الحسين ﵁، ومولد فاطمة رضي الله عنها، ومولد الخليفة، وليلة أول رجب، وليلة منتصف رجب، وأول ليلة في شهر شعبان وليلة النصف، وأول رمضان، وجبر الخليج، ويوم النيروز، ويوم الغطاس، ويوم الميلاد، وعيد النصر، وخميس العهد.

والفكر السائد أن الموالد المصرية لها جذور من مصر القديمة، ولكن لم يستخدم المصريون القدماء مصطلح الموالد؛ وإنما استخدموا لها مصطلحًا آخر هو الأعياد، التي تعددت في مصر القديمة كثيرًا، وخاصة في عهد الدولة الحديثة، فهناك بالإضافة إلى الأعياد الدينية لمواكب آمون وأعياد الآلهة

المختلفة، أعياد الجبانة، وأعياد فرعون، وكذلك الأعياد الزراعية؛ كعيد رأس السنة، وعيد الحصاد، وعيد الفيضان. وكانت معظم هذه الأعياد ذات طابع ديني، ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى مناسبات لإقامة الاحتفالات الكبيرة والمواكب الضخمة. وقد حفظ لنا التاريخ بعض المعلومات من هذه الأعياد كالعيد الكبير للإله (مين)، وعيد آلام أوزوريس، وعيد زيارة آمون لمعبد الأقصر.

ويوضح أيضًا الدكتور فاروق أحمد مصطفى أن أهم ملامح الاحتفالات المصرية القديمة تتركز في تقديس الآلهة والفرعون وتقديم القرابين، والقيام ببعض الممارسات الشعائرية الأخرى كالرقص الديني والموسيقى والغناء. وأن هناك عبارات التقديس التي كانت تطلق على الفرعون، فهو الذي يهب الحياة، وهو النور الذي يهدي الناس، وهو إما إله وإما من سلالة الآلهة، فهو القادر والمسيطر وليس لقوته حدود، وهذه الصفات نفسها نجدها مستخدمة إلى الآن في تقديس الأولياء القديسين في العصر الحديث.

ورأى مكفرسون أن المصريين المحدثين إنما يقومون بحركة إحياء الثقافة المصرية القديمة، فمولد البدوي هو إحياء لمولد الإله (شو) الذي جرى قرب طنطا ومدينة (شو) المعروفة الآن باسم (سمنود).

واعتبر مولد (عبد الرحيم) في قنا، و(يوسف أبو الحجاج) في الأقصر بموكبه بقواربه، يعودان إلى عبادة آمون كما هو مرسوم على حائط معبد رمسيس الثالث، وأن مولد (إسماعيل الإمبابي) الذي يقام في العاشر من الشهر القبطي بؤونة من كل عام، وهو يوم النقطة التي تشير إلى دموع إيزيس (عيد إيزيس).

• عبادة الأولياء والشهداء في العهد البطلمي

ويشير سليم حسن أنه من الظواهر التي تلفت النظر بصورة قوية كثرة الأضرحة والمقامات التي نجدها منتشرة في مصر بهذا العدد العظيم من هؤلاء الأولياء أو الشهداء دون غيرها.

ويحاول في تفسير أصل هؤلاء الأولياء والشهداء:

كانت مصر منذ أقدم عهودها مقسمة مقاطعات صغيرة بلغ عددها يومًا اثنتين وأربعين مقاطعة، وكانت كل مقاطعة مقسمة وحدات صغيرة، لكل منها: إدارتها الخاصة، وإلهها المحلي الخاص الذي

كان يعد المسيطر عليها من الناحية الروحية. وبعد فترة من الزمن اتحدت هذه الوحدات معًا وكونت المقاطعة، ولكن كانت كل وحدة أو قرية محافظة على إلهها المحلي هذا، في حين إن المقاطعة كان لها إلهها الذي يسيطر على كل المقاطعة وتدين له كل أجزائها. وعند اتحاد المقاطعات كان أقوى آلهة المقاطعات هو الإله المسيطر هذا، مع العلم أن كل قرية ومدينة ومقاطعة كانت تحتفظ بإلهها المحلي، ومن ثم كانت كل بلدة تحتفظ بآلهتها بالتوارث على مر السنين.

وعلى الرغم من تقلب الأحوال السياسية في البلاد وتغير الحكام فيها، فإن القوم ظلوا على عبادة آلهتهم والاحتفاظ بإقامة شعائرها على مر الدهور في نهاية العهد الروماني، حتى لما جاء الإسلام وتغيرت ديانة القوم ظلت عادة التضرع للآلهة باقية في نفوس المصريين؛ فاتخذوا بدلاً من الآلهة أولياء الله الصالحين الذين يعتقدون في ظهور الكرامات على أيديهم. إن من يقارن ما يحدث الآن في أضرحة هؤلاء الأولياء الشهداء بما كان يحدث في مصر القديمة ليجد أن الفرق قليل، أو بخاصة عندما نعلم أن الأولياء والشهداء في نظر عامة الشعب المصري هم في الواقع في مرتبة الآلهة.

وعند درس متون العهد الديموطيقي البطلمي نجد أن هؤلاء الأولياء والشهداء كانوا يعاملون معاملة السادة والآلهة، وكانت تحبس عليهم الأوقاف، وتقرب لهم القرابين، وتقام لهم الصلوات كما في الحال في مصرنا الحالية.

وإننا نتفق كثيرًا مع تفسير سليم حسن؛ لأن رؤيته قريبة للواقع لما نراه من تعدد الأولياء والقديسين المنتشرين في كل أنحاء القطر المصري، ومن صفات الآلهة المحلية في مصر القديمة وصفات الأولياء والقديسين.

بعد كل هذا العرض التاريخي لنشأة الموالد ونشأة الأضرحة الخاصة بالأولياء والشهداء، التي يبدو أن جذورها هي مصر القديمة، وأنها عادت لتظهر مرة أخرى في عصر الدولة الفاطمية دون أن تمر على العصر القبطي، ولم تشر غالبية المصادر التاريخية إلى الموالد المسيحية في فترة قبل مجيء الإسلام مصر – يتساءل الباحث: هل هناك موالد مسيحية في هذه الفترة أو احتفالات قريبة بالموالد في صورتها الحالية؟

إننا سنحاول في هذه السطور الإجابة عن تاريخ الموالد المصرية (القبطية) في فترة العصر القبطي في عدة نقاط:

أول إشارة إلى هذا ما يسرده مكفرسون:

«ورغم أنه من الصعوبة القول بأن الموالد قد أصبحت عادة قومية في مصر مع مقدم القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي أو اعتبارها شيئًا من ذلك كلية، حتى قد اعترف بها رسميًّا، حتى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فإن هذه الموالد في أحوال كثيرة استمرار لأعياد قامت لسنوات بلغت المئات، بل الآلاف قبل النبي.

وفي فقرة أخرى من كتابه (الموالد):

تحتفظ بعض موالد هذه الأيام المصرية بممارسات تنحدر من العصور الفرعونية، وخاصة تلك التي في المنطقة الطيبية (طيبة)؛ هذه العادات القديمة، ثم الشعائر عند مقابر القديسين الأقباط لقرون قبل الإسلام أدت إلى (المولد المصري) الذي نعرفه الآن.

وقد جاء في مخطوطات القرن الثالث وصف إقامة الصلوات في ذكرى الشهداء تكريمًا وتحية لأرواحهم.

ولقد أسرف المؤمنون أحيانًا في إحراق الشموع في كنائس المقابر التي للشهداء؛ مما أدى إلى إصدار قانون خاص في مجمع الليبريس سنة ٣٠٥م يمنع إحراق الشموع أثناء النهار في المقابر؛ حتى لا يتضايق المؤمنون من كثرة النار. وقد مال بعض الشراح لتفسير هذا القانون على أنه إمعان في إخفاء اجتماعات المسيحيين عن أعين الوثنيين.

وتدل هذه الفقرة على عادة كثرة إيقاد الشموع، وخاصة عند كنائس مقابر الشهداء في القرن الثالث، وهو ما تحرص عليه حتى الآن الكنائس والأديرة والموالد، بل إن إيقاد الشموع يعد من أهم النذور التي تقدم في الموالد.

والمشتغلون بالحفريات والآثار يخبروننا عن مجموعات هائلة من القناديل الفخارية والزجاجية والبرونزية التي وجدت وعليها كتابات تفيد أنها من استخدام الكنائس، وأزمانها تبتدئ من القرن الرابع. وقد اختصت الحفريات المصرية بالعدد الهائل، منها الذي تزدحم به متاحف أوروبا، ومنها:

١- مصباح قنديل مصري مكتوب عليه: القديس بولي إيفاكتو، مع نجمة تتوسط الرسم، وقد وجد في كنيسة قفط بالصعيد.

٢- مصباح قنديل مصري مكتوب عليه «الأبا القديس سرجيوس».

٣- مصباح قنديل مصري مكتوب عليه «الأما القديسة كرستينا».

٤- مصباح قنديل مصري مكتوب عليه «القديس سيرياكوس». وهذه المصابيح موجودة حاليًّا بالمتحف البريطاني، كتالوج الفخار (١: صـ ٥٢).

ويبدو أن عادة بناء الهياكل أو الكنائس على جثث القديسين هي عادة كانت منتشرة في القرن الخامس الميلادي؛ إذ إن القديس الأنبا شنودة (القرن الخامس الميلادي) كان يحث المسيحيين على منع إنشاء الهياكل على جثث القديسين، وهي عادة كانت منتشرة حينذاك. ويقول القديس في هذا الشأن:

«زعموا أن بعض الشهداء ظهروا لبعض الناس وكشفوا لهم عن الأماكن التي دفنت بها عظامهم، وعند البحث وجدوا أنها بقايا كلاب، وزعموا أيضًا أن بعض المباني والتوابيت التي كان يكشف عنها خلال أعمال البناء أو الهدم كان بها ما يدل على أنها تضم أجساد الشهداء؛ وإنما هي الشياطين التي كانت تظهر لهؤلاء الناس في ثياب الشهداء، وبذلك كانت تبنى لهم هياكل في الكنائس، وليس لمثل هذه الهياكل من أثر إلا أنها تفقد الهياكل الحقيقية قيمتها، وأنها مجازفة عظيمة أن تبنى الهياكل على عظام لا يعرف كنهها أو مصدرها. وعلى كل حال ليس هناك في الإنجيل أية إشارة تدعونا إلى بناء الهياكل حتى فوق الرفات الحقيقي للشهداء أو الرسل. إن آباءنا الذين رقدوا في أيامنا كما أعلم وأشهد يوصوننا بألا ندع إنسانًا يبحث عن أجسادهم، ويجب أن يصبح المرء قطعة من الطين ممزوجة بالتبن تدوسها الأرجل».

توضح الفقرة السابقة فكرة بناء الهياكل على أجساد القديسين في القرن الخامس، وهي تكملة وامتداد لفكرة سليم حسن في العصر البطلمي.

• الموالد المصرية في القرن الخامس الميلادي

إذ تحدثنا عن الموالد المصرية في القرن الخامس فهي إذن موالد قبطية مسيحية كانت موجودة بصورة حية؛ حيث لا تختلف كثيرًا عن الموالد في عصرنا الحالي؛ إذ كانت تقام أساسًا على تكريم القديسين أو الشهداء، وبهذا تظهر بصورتها الدينية. ولكن لم يكن القرن الخامس يخلو من جوانب المولد الأخرى، كالجانب الترفيهي والتجاري والاقتصادي كما هي الحال في موالدنا.

ويحدثنا الأنبا شنودة (موضوع البحث) القرن الخامس الميلادي عن عظة قوية يندد فيها بالشرور التي كانت تجري عن زيادة الشهداء والقديسين؛ إذ يقول:

«جميل جدًّا أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ليصلي ويقرأ وينشد المزامير ويطهر نفسه ويتناول من الأسرار المقدسة في مخافة المسيح، أما من يذهب ليتكلم ويأكل ويشرب ويلهو، أو بالحري يزني ويرتكب الجرائم نتيجة للإفراط في الشراب والبغي والفساد والإثم فهذا هو الكافر بعينه. وبينما البعض في الداخل يرتلون المزامير ويقرؤون ويتناولون الأسرار المقدسة؛ إذ بآخرين في الخارج يملؤون المكان بآلات الطبل والزمر — بيتي بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص — لقد جعلتموه سوقًا لبيع العسل والحلي وما أشبه، لقد جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق حميركم وخيلكم، جعلتموه أماكن لسرقة ما يعرض فيها للبيع، فبائع العسل بالكاد يحصل على قليل من الزبائن المتشاحنين، أو يستخلص لنفسه شيئًا من الفائدة نظير أتعابه، حتى الأشياء التي لا يمكن أن تحدث للباعة في الأسواق العامة تحدث لهم في موالد الشهداء.

يا للغباء! إذ كنتم تذهبون لمواطن الشهداء لتأكلوا وتشربوا وتبيعوا وتفعلوا كلَّ ما يروق لكم، فأية فائدة لبيوتكم التي في مدنكم أو قراكم؟ يا لعقولكم المغلقة! وإذا كانت بناتكم وأمهاتكم يعطرن رؤوسهن ويكحلن عيونهن ويتجملن لخداع الناس الذين ينظرون إليهن، وإذا كان أبناؤكم وإخوتكم وأصدقاؤكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم إلى مواطن الشهداء فلماذا جعلتم لكم بيوتًا؟

هناك كثيرون يذهبون إلى الموالد لإفساد هيكل الرب، وليجعلوا من أعضاء المسيح أعضاء للإثم والفجور بدلاً من أن يحفظوا لها قداستها وطهارتها من كل رجس، سواء كانوا رجالًا أو نساءً. دعوني أقول لكم بصراحة تامة: إن كثيرين منكم يلتمسون لأنفسهم عذرًا قائلين: ليست لنا زوجة أو ليس

لنا زوج، فلا تجعلوا زيارتكم لموالد الشهداء فرصة لتدمير أجسادكم في المقابر التي حولها، أو المباني، القريبة منها أو في أركانها".

وتعتبر هذه الخطبة دليلاً قاطعًا على وجود الموالد المصرية منذ القرن الخامس الميلادي، أو ربما قبل هذا التاريخ، وبصورتها الحية القوية التي هي صورة الموالد في عصرنا الحالي، وربما تغير شكل الاحتفال، ولكن بقي المضمون كما هو، فنرى في صورة الموالد القديمة المظاهر أو الجوانب الدينية والتجارية والترفيهية بالإضافة إلى الأنشطة المختلفة التي كانت تمارس إلى جانب المولد، هي بالفعل صورة حية لموالدنا الحالية.

ويشير مراد كامل إلى فكرة بداية الموالد في العصر القبطي بقوله:

وكلما اشتهر قديس أو شهيد في منطقة أو مدينة يتوافد على كنيسته في تلك المدينة جموع كثيرة من الشعب للاحتفال بذكراه. وعندما يصل عدد القادمين إلى المنطقة بضعة آلاف يضطرون إلى إقامة الخيام حول الكنيسة ليبيتوا فيها، ويقضوا أيام العيد التي تصل غالبًا إلى سبعة أيام.

وبدأت مثل هذه الاحتفالات أصلًا على أساس تكريم القديس برفع الصلوات وإقامة القداسات وقراءة سيرته بالتفصيل للتشبه بقدوته الصالحة، ثم بتقديم النذور من شموع وبخور وأدوات تلزم للكنيسة إلى جانب نحر الذبائح لإطعام الفقراء والمحتاجين، ولكن لكثرة العدد وما تحتاجه هذه الألوف من أماكن للمبيت ومن مأكولات ونحر للذبائح وبيع لاحتياجات الزوار والنذور وخلافه، انحرفت هذه الاحتفالات من طبيعتها الدينية البسيطة إلى مظاهر مادية تجارية كانت سببًا في تسرب كثير من الشرور الاجتماعية إلى تلك «الموالد» مما لم تقره الكنيسة.

وفكرة الموالد التي أقيمت على أساس تكريم القديسين، وظاهرة الاحتفال بالقديسين والشهداء والتضرع إليهم وتقديم النذور والأضاحي لهم – لم تظهر بظهور القديسين، بل كان لها أساس في مصر القديمة، وهو ما أشار إليه سليم حسن بالآلهة المحلية؛ حيث كانت تقام لهم الصلوات وتقرب لهم القرابين ويتضرعون إليها. ولما جاءت المسيحية مصر احتفظ وجدان المصريين بهذه الثقافة واستعاضوا عن الآلهة المحلية بالقديسين والشهداء.

جدير بالملاحظة أن العصر الروماني قبل مجيء الإسلام مصر كان من أشد العصور اضطهادًا للمسيحيين حتى سمي عصر الإمبراطور الروماني دقلديانوس بعصر الشهداء؛ إذ كان الشهداء

بالآلاف، ومن المنطق أن يحتفل المسيحيون في ذلك العصر بشهدائهم ويبنون مقابرهم ويحتفظون برفاتهم، ويجعلون أماكن أجسادهم أماكن مقدسة يأتون إليها من كل مكان كي يتباركوا بها ويقدموا النذور لهم. وكثير من الشهداء والذين ما زال المسيحيون يحتفلون بهم مثل القديس مارجرجس ومارمينا والشهيدة دميانة كانوا أثناء العصر الروماني.

كان من الطبيعي أن تبدأ الاحتفالات بهم بعد نياحتهم وتستمر حتى يومنا هذا، وخلاصة القول: إن الاحتفال بالقديسين والشهداء كانت بدايته في العصر الروماني، وبالتالي – كما ذكرنا – فالاحتفال بكل مظاهره هو فكرة الموالد.

• هل الموالد الإسلامية امتداد للموالد المسيحية؟

فإذا اعترفنا بوجود الموالد المسيحية بصورتها الحية قبل مجيء الإسلام مصر وذلك كما أوضحنا سابقًا، فإذًا لا بد أن تكون الموالد الإسلامية امتدادًا بل موازية للموالد المسيحية. فعند دخول الإسلام مصر وتحول كثير من المسيحيين إلى الإسلام لم تختف فكرة القديسين من ذاكرتهم، وبقي الوجدان المصري بالدين الجديد يحمل ترسبات الثقافة القديمة فاستعاضوا عن القديسين بالأولياء واستعاضوا عن الموالد المسيحية بالموالد الإسلامية، ولا سيما بعد دخول الفاطميين مصر ونشر الدعوة الفاطمية والاحتفال بمولد النبي ﷺ ومولد أهل البيت. ومما يؤكد ذلك تشابه الموالد المسيحية والإسلامية في مضمونها وطبيعتها وشكلها، وربما الاختلاف الوحيد هو شكل بعض الشعائر الدينية لدى كلٍّ منهما واختلاف الرموز المقدسة لديهم.

وما يؤكد ذلك أيضًا بعض ما رصده مكفرسون من أن بعض موالد المسلمين تاريخ الاحتفال بها مرتبط بالتقويم القبطي، وهو نفس التقويم المستخدم لموالد المسيحيين الأقباط، وأيضًا اشتراك كلٍّ من المسلمين والمسيحيين في الموالد المسيحية والإسلامية.

وبخلاف خطبة الأنبا شنودة (القرن الخامس الميلادي) عن الموالد؛ فإنه من الطبيعي والمنطقي أن تكون هناك احتفالات بالقديسين في الفترة من بداية دخول المسيحية مصر مرورًا بعصر الاستشهاد وموت كثير من المسيحيين استشهادًا على اسم المسيح، حتى دخول الفاطميين مصر وهي فترة تصل إلى ألف وثلاثمائة سنة، فلا بد أن تكون هناك احتفالات بالشهداء القديسين في هذه الفترة الطويلة،

ولا يمكن أن تكون بداية الاحتفالات بالموالد هي العصر الفرعوني، ثم ماتت واختفت وظهرت مرة أخرى بعد ألف وثلاثمائة سنة إبان العصر الفاطمي.

• طبيعة الموالد المسيحية

١- يتم الاحتفال بالموالد المسيحية طبقًا للتقويم القبطي مثل الاحتفال بمولد الأنبا شنودة في ٧ أبيب من كل عام.

٢- يتم الاحتفال بمولد القديسين في ذكرى (نياحتهم) وفاتهم، وهو اليوم الذي أتم فيه البطل جهاده، ولا يهم الكنيسة يوم الولادة فإنه يوم لا يقترن بشيء من البطولة أو الإعجاز. وهذا يختلف عن الموالد الإسلامية التي تحتفل بذكرى مولد الأولياء.

٣- الاحتفال بمولد القديسين غالبًا ذو موعد ثابت ومحدد من كل عام، فهو تاريخ وفاة القديس أو استشهاد الشهيد، ولا يتم في أي وقت مثل بعد الحصاد أو تبعًا للظروف الأيكولوجية أو الاقتصادية، أو بعد الانتهاء من الدورة الزراعية كما يحدث أحيانًا في الموالد الإسلامية.

٤- زفة الأيقونة وهي من أهم ما يميز الموالد المسيحية، وهذه الأيقونة تكون صورة للقديس، وتختلف عن الصورة العادية؛ إذ إن الأيقونة لها صبغة طقسية وعقائدية ويُصلى عليها قبل وضعها في الكنيسة صلاة التدشين؛ حيث تدهن الأيقونة بزيت الميرون. ويحمل الأيقونة مجموعة من الشمامسة، ويتقدمهم كبير الأساقفة ومجموعة من الشمامسة بزيهم الخاص، يحملون الصلبان والآلات الموسيقية الكنسية ويرتلون الألحان في موكب عظيم، ويتدافع الآلاف من الشعب لأخذ بركة القديس (الأيقونة).

٥- طقس المعمودية، وهو من الطقوس الأساسية، وتمارس أحيانًا في الموالد.

فيما عدا ذلك (بعض الشعائر الدينية) فتتشابه مظاهر الاحتفال بالموالد المسيحية والموالد الإسلامية. بالإضافة إلى اشتراك كلٍ من المسيحيين والمسلمين في الموالد الإسلامية والمسيحية.

• رسامة القديس

هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام حيث يشير الدكتور محمد الجوهري في دراسته عن الأولياء إلى أن هناك فارقًا بين مكانة الأولياء في الدين الإسلامي ومكانتهم في المسيحية، فالإسلام لا يعرف عملية رسامة الولي أو القديس، أي إنه ليس محتاجًا إلى ترخيص من جانب القائمين على الدين الرسمي لكي يكتسب مكانته.

وحقيقة لا يحتاج القديس إلى ترخيص من جانب القائمين على الدين الرسمي كي يكتسب مكانته، بل إن القديس يصل إلى هذه المرتبة بطريقة عرفية، من خلال إظهار المعجزات والكرامات، ويتم الاعتراف به شعبيًّا من قبل الشعب أولاً حتى يذيع صيته، ولا تعلن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بأنه قديس إلا بعد مرور خمسين عامًا على وفاته، أي بمرور جيل كامل حتى تتأكد تمامًا من قداسته، ولا يدعي أحد غير ذلك، وبعدها تضيفه إلى قائمة القديسين في الكتب الكنسية.

والكنيسة القبطية الأرثوذكسية لا يوجد لديها ما يعرف برسامة القديس، أي إنها لا تستدعي أحدًا حتى لو كانت مواصفاته مثل القديسين، وتصلي عليه أو تقرأ بعض الصلوات كي ترسمه قديسًا فلا يوجد شيء لديها من هذا القبيل، وغالبًا لا يطلق الأقباط القديس إلا بعد وفاة الشخص وظهور المعجزات والكرامات التي توضح أنه قديس. وربما يحدث ذلك لدى المسيحيين الكاثوليك؛ حيث يفحص الفاتيكان عادة الأسباب (الموجبة للرسامة) على مدى فترة تبلغ سنوات كثيرة، رغم أن شهورًا قليلة أحيانًا تكفي كما في حالة سانت تريزا، ويعيِّن محامٍ ليفند دعاوى المرشح، ويقدم أي شيء يعوق انضمامه إلى قائمة القديسين. ولا بد من إثبات المعجِزات (المنسوبة للمطلوب سيامته قديسًا). وفي رأينا أن الفاتيكان يقوم بإنعام هذا اللقب على الشخص المشهود له من الجميع بالتقوى والمعجزات، ويأخذ في ذلك سنوات للتأكد من هذا.

أهمية الموالد

تكمن أهمية الموالد في عدة نقاط، ومنها:

١- تعتبر زيارة موالد القديسين الفرصة المناسبة لخفض التوتر النفسي والارتياح من القلق. فإنه عندما يلجأ الزائر للقديس، الذي في اعتقاده أنه (المنقذ – الحامي – الملجأ – الرمز –المثل الأعلى – الأب الحنون – الأم – المحارب عنه) ليزيح عنه كلَّ نقائصه ومشكلاته وهمومه وتوتراته، فهو يشكو له ويصلي بلجاجة، بل يعاتبه ويشكو إليه حزنه وألمه وفشله وفقره وضعفه، وبهذا يصل إلى التوازن النفسي؛ حيث إنه أفرغ كلَّ رغباته المكبوتة بداخله ومخاوفه، هذا التفريغ يؤدي به إلى الارتياح النفسي.

ويُنظر إلى القديس بأنه الحامي له والمحارب عنه، ويرد له مظالمه وكأنه البطل الشعبي المنتظر كي يخلص شعبه؛ فتؤدي هذه النظرة التي تعني في وجهة نظر علماء النفس (مبدأ التعويض) إلى حماية واطمئنان للفرد والجماعة الشعبية، ويعوض ويغطي آلامها وفقرها ونقائصها. ويبدو هذا جليًّا في زفة الأيقونة؛ حيث يتجمع المئات والآلاف أثناء خروج أيقونة القديس في موكب مهيب.

٢- العوز أو العجز أو الاحتياج هو الذي يؤدي بالإنسان إلى الالتجاء إلى قوة خارقة (متمثلة في القديس) كي يسد هذا العوز، واعتقاده بالقديس يجعله واثقًا ومطمئنًّا، ويؤدي به في النهاية إلى الارتياح النفسي وخفض توتراته.

٣- تعتبر أيضًا زيارة الموالد مناسبة موائمة للاشتراك في زفة الأيقونة، وخاصة بين مجموعات كبيرة من الشباب المتحمس؛ حيث يقومون بالهتاف لمدح القديس وكأنهم يرونه رؤية حقيقية، بل أحيانًا تدخل هذه الهتافات التي أشبه ما تكون بالمظاهرات فرصة للتنفيس عن كبتهم والتعبير عن السخط العام والضيق متخذة الاحتفال الديني والمولد كإطار للحماية.

٤- والموالد تعمل على تدعيم الاعتقاد في الأولياء أو (القديسين) وتقوية هذا الاعتقاد، وبالتالي تحافظ على استمراريته عبر الأجيال المتعاقبة، كما أنها جزء من النسق الديني الموجود داخل

المجتمع وتعمل على الترابط والتماسك، فهي من الموضوعات التي يهتم بها المعتقد الشعبي، الذي يعتبرها جزءًا لا يتجزأ من النسق الديني.

٥- ويعتبر المولد عيدًا شعبيًّا دينيًّا يقوم على تكريم القديس والاحتفاء به، وهو فرصة لإقامة الشعائر الدينية وسط الجمع الكبير ونوال البركة والصلاة وتقديم النذور وإيقاد الشموع وتعميد الأطفال.

٦- تعتبر الموالد فرصة للانفلات من قيد الأعراف والتقاليد والعادات الملزمة لسلوك الطبقات الشعبية. فهناك المرأة الريفية التي تذهب للمولد، وتقيم في خيمة على مرأى من العابرين، وتذهب في نزهة للتسوق متخلية عن حيائها وخجلها، وكذلك البنات الريفيات فهن يتزين بصورة واضحة ويسرن في نزهة بين سرادقات التسوق، ففي ظل هذا المولد لا يعتبر هذا السلوك معيبًا في حين في قريتهم تعمل الأعراف والتقاليد على منع هذا. كذلك كانت الطبقات الشعبية في الماضي تمارس أشياءَ لا تليق بمكان قدسي، ولكن في اعتقادهم أن القديس متسامح، فهي مناسبة للترويح؛ فهم يتخلون عن وقارهم والروتين اليومي، فهم يرقصون ويغنون ويمارسون الألعاب ويفترشون الأرض ويقضون أوقاتًا مرحة.

٧- تعتبر الموالد مناسبة اجتماعية لتوطيد العلاقات الاجتماعية بين الأهل والأقارب والأصدقاء، كما تكون فرصة مناسبة للمصاهرة.

٨- تعتبر الموالد مناسبة للنشاط التجاري والاقتصادي؛ حيث يتم فيها البيع والشراء وتقديم النذور.

٩- تقدم الموالد مكسبًا ماديًّا كبيرًا للكنيسة أو للدير؛ فهي تحافظ عليه مستغلة هذه المناسبة لتقديم الخدمات الروحية للزائرين من إقامة القداسات اليومية والعظات والخطب الدينية وتلاوة الألحان والترانيم.

١٠- تعتبر الموالد مصدر رزق وعمل لكثير من البائعين؛ حيث يعتمد عملهم على التنقل بين الموالد المسيحية والإسلامية طوال العام.

الفصل الثالث
مفاهيم نظرية

- المعجزة
- مفهوم البركة

لما كانت المعجزات موضوعًا هامًّا ومرتبطًا ببحثنا عن موالد القديسين، قمنا بسرد التعريفات والمفاهيم الخاصة بالمعجزات، وبالرغم من صدق روايات المعجزة لدى أصحابها التي حدثت معهم، ويثبتون ذلك بأدلة طبية من أشعَّة وتحاليل قبل المعجزة وبعدها؛ فإن البعض الآخر ينكرها ويرجعها إلى الصدفة والشفاء بالإيحاء.

وهناك رأي لقداسة البابا شنودة الثالث، إذ يقول: «إذ يجري البعض وراء صورة يقولون إنها تنضح زيتًا،أو تمثال يبكي، أو ينزف دمًا، أو شيء نشربه فنشفى..... إلخ. وهذا كله إلغاء للعقل، وإن كان لا يلغي إمكانية أن يسمح الله بمعجزات حقيقية فعلاً، فوق العقل، لتمجيد اسمه وقديسيه، مثل ظهور السيدة العذراء، ومعجزاتها اليومية مع أولادها، وكذلك عمل الملائكة والقديسين في إنقاذنا ورعايتنا. المهم أن تكون معجزات حقيقية وليس مدعاة، وأن يكون ذلك من خلال لجنة فحص وتقصي حقائق معتمدة كنسيًّا.[١]

وفي هذا البحث قمنا بوضع وسرد بعض التعريفات للمعجزة، أهداف المعجزة وخاصة معجزات القديسين مستندين إلى الكتاب المقدس، ثم قمنا بتحليل بنائي للمعجزات (مورفولوجيا المعجزة) واضعين في النهاية نمطًا عامًّا للمعجزة ذا تنويعات مختلفة.

وقد ركزنا في تحليلنا على معجزات الشفاء لما لها من أهمية كبرى في حياة الناس، والتي تملأ كتب المعجزات والمنتشرة بصورة غير عادية في بيوت الأقباط، والتي لا يخلو أي بيت منها.

المعجزة

هناك آراء كثيرة تناولت إعطاء تعريف أو مفهوم حول المعجزة، ومن هذه الآراء:

- المعجزة هي عمل تجريه القوة الإلهية، لغرض إلهي، بوسيلة ليست في متناول البشر، والمعجزة سميت هكذا؛ لأن الإنسان يعجز عن صنعها من ذاته بدون الاستعانة بالقوة الإلهية.

- المعجزة هي حادثة غير عادية، وتخرج عن المألوف، تثير في الإنسان العجب، وتوقظ فيه الإحساس بالرهبة.

١- الأنبا موسى، **المسيحية والغيبيات** ([القاهرة]: أسقفية الشباب، ٢٠٠٥): ٢٣.

- المعجزة هي عمل خارق للقوة الإلهية يفوق القوى المعتادة الطبيعية أو يمثل اختلافًا محسوسًا عن قوانين الطبيعة المعروفة، تبرهن على أن الله هو الصانع لكل القوانين، وهو المسيطر عليها، والقادر على التعامل معها حسبما يراه ملائمًا.

- عرف «وبستر» المعجزة بأنها حادثة أو تأثير في العالم المادي يخالف القوانين المتعارف عليها للطبيعة أو يسمو على معرفتنا بهذه القوانين، حادث فوق العادي، شاذ أو مخالف لما هو معتاد، مصدره قوة أسمى من البشر.

- المعجزة هي حادثة تحدث بقوة إلهية، تخترق مجرى الطبيعة العادي وتثبت إرسالية من جرت على يديه الحادثة.

وهي فوق الطبيعة المألوفة، ولكنها ليست ضدها، وهي تحدث بتوقف نظم الطبيعة ولكنها لا تلغي تلك النظم، ويقصد بها إظهار النظام الذي هو أعلى من الطبيعة، الذي يخضع له نظام الطبيعة نفسه، ولما كان الله هو القوة الوحيدة فوق الطبيعة والمتسلط عليها، فهو الوحيد القادر على صنع العجائب به أو بالذين يُنيط بهم ذلك.

وعرف «أنتوني فلو» المعجزة بأنها عمل يظهر المقدرة الإلهية من خلال إيقاف أو تغير العمل الاعتيادي لقوانين الطبيعة.

١- التصور الكتابي للمعجزة هو أنها عمل خارق للقوة الإلهية يفوق القوى المعتادة للطبيعة، ويحدث في تناغم مع أهداف الإعلان.

«يذكر» ريتشارد.ل. يورنيل الصفات الخمس التي تميز المعجزة، وهي:

١- تحدثها قوى الله

٢- مؤقتة

٣- استثنائية

٤- خارقة المسار الطبيعي للطبيعة

٥- بغرض إظهار أن الله عامل في التاريخ.

أهداف المعجزة

١- إعلان الله عن ذاته في العهد القديم.

٢- دليل على صدق الكتاب المقدس، وأنه موحى به من الله، وبدون المعجزات يصير الكتاب المقدس كأنه كتابٌ عادي. ويقول «هربرت لوكير»: والمعجزات كجزء لا يتجزأ من الكتاب المقدس تقدم الدليل على أنه كلمة الله الموحى بها. ولولا ما يتضمنه من المعجزات، لا نستطيع أن نقبله ككتاب غير عادي، فالمعجزات دليل قاطع على أنه من عند الله.

٣- إظهار مجد الله.

٤- لتقريب الناس إلى الله.

٥- الإيمان بالله كهدف أساسي من أهداف المعجزة، ويقول القديس أغسطينوس: المعجزات تقودنا للإيمان.

٦- للشهادة للحق وصحة العقيدة.

٧- إظهار تحنن الله على البشر من شفاء أمراض... إلخ.

وتعتقد المسيحية أن الذي يجري المعجزات هو الله بذاته أو بواسطة ملائكته أو رجاله القديسين.

ويذكر الكتاب المقدس (العهد القديم) المعجزات التي أجراها الله بواسطة رجاله القديسين، مثل: الضربات العشر، وشق البحر الأحمر، والمعجزات التي حدثت لبني إسرائيل في برية سيناء بواسطة موسى النبي، وسقوط أسوار أريحا، وقوف الشمس بواسطة يشوع.... إلخ.

ويذكر الإنجيل (العهد الجديد):

أن السيد المسيح قام بعمل **٣٥** معجزة فقط على سبيل المثال، بالإضافة إلى ولادته من مريم العذراء، وقيامته من الأموات، بالإضافة إلى السلطان الذي أعطاه لتلاميذه الاثني عشر والآباء الرسل من شفاء أمراض وإخراج شياطين.

«ودعا تلاميذه الاثني عشر، وأعطاهم قوة وسلطانًا على جميع الشياطين وشفاء أمراض».

(لو ٩: ١– ٢) وجرت معجزات عديدة على أيدي الآباء الرسل وصار خوف على كل نفس، وكانت عجائب وآيات كثيرة تجرى على أيدي الرسل» (أع ٤: ٤٣).

وليس التلاميذ والرسل فقط هم الذين يجرون المعجزات؛ ولذلك صنع استفانوس وهو ليس من الرسل الآيات والقوات، وصنع برنابا وبولس قوات غير معتادة.

وجاء في دائرة المعارف الكتابية «ومن المؤكد أن الله قادر على كل شيء، يستطيع أن يمنح عبيده في أي وقت القدرة على صنع المعجزات اليومية حسب إرادته».

وتحفظ لنا ذاكرة التاريخ القبطي معجزات عظيمة، مثل: نقل جبل المقطم على يد القديس سمعان الخراز في عهد المعز لدين الله الفاطمي، ومعجزات تجلي السيدة العذراء مريم في ٢ إبريل ١٩٦٨ على قباب كنيستها بالزيتون، وشهد بذلك المسلمون والمسيحيون، وكثير من وكالات الأنباء المحلية والعالمية، وكذلك الجرائد المصرية بكل أنواعها والعالمية أيضًا.

مصطلح قديس

لم ترد بصورة المفرد إلا مرتين في الكتاب المقدس، وهي تطلق على الذين حصلوا من البشر على شيء من القداسة؛ «لأن هيرودس كان يهاب يوحنا المعمدان عالمًا أنه رجل بار وقديس»[١] «سلموا على كل قديس في المسيح (يسوع)».[٢] ويظهر من آيات الكتاب المقدس أن جميع المؤمنين بالمسيح قديسون؛ بمعنى أنهم قد نالوا الخلاص وقد امتلأوا بالروح القدس.[٣]

وهناك فرق بين قدوس التي تطلق على الله فقط، وبين قديس التي يتصف بها الإنسان متى كان من القديسين؛ «لأنه مكتوب كونوا قديسين لأني أنا قدوس»[٤].

١- «مرقس»، في **إصحاح** ٦: عدد ٢٠.

٢- «رسالة فيلبي»، في **إصحاح** ٤: عدد ٢١.

٣- **قاموس الكتاب المقدس**، ط. ٧ (القاهرة: دار الثقافة، [١٩٩٧]): ٧١٩.

٤- «رسالة بطرس الأولى»، في **إصحاح** ١: عدد ١٦.

والقديس هو الشخص الذي فرز نفسه عن الشر بعملية التقديس التي تستمر طيلة حياته، وهو الشخص الذي يسير نحو هدف واحد وهو المسيح.

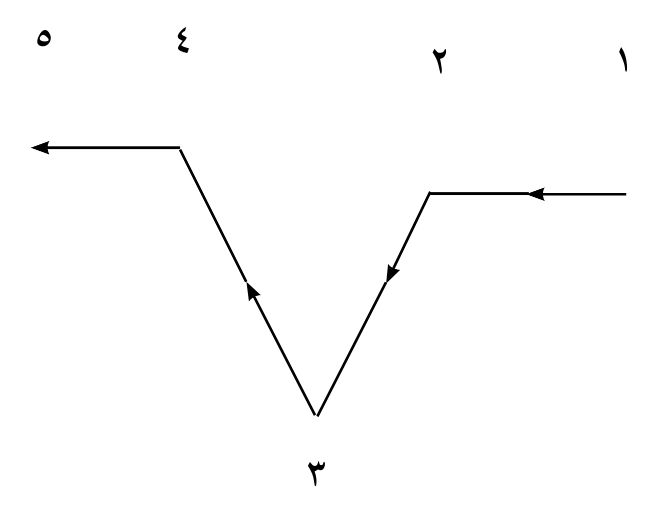
والقديسون هم رجال الله الأتقياء الذين ساروا حسب تعاليم الكتاب المقدس، وكرسوا حياتهم للمسيح، وسلكوا في الفضيلة إلى أعلى درجاتها، ومنهم من استشهد على اسم المسيح، وأعطى لهم الله مواهب لعمل معجزات باسمه.

والقديسون سمحوا بأن تسفك دماؤهم لأجل محبة المسيح، فأصبح لهم دالة أمام الرب وسيقبل شفاعتهم؛ فإذا عبد إنسان الرب وصلى إليه باسم أحد القديسين فستقبل صلاته.

والقديس هو بمثابة صديق يعرف الله أفضل مما تعرفه أنت، ويمكن أن تسأله بدرجة أو بأخرى أن يقدمك ويوصي الرب بك.

والقديس ممكن أن يقوم بدور الوسيط بين الله والإنسان (المعتقد الشعبي). وهؤلاء القديسون يساندوننا في حياتنا اليومية، وهم مصدر عزاء وشجاعة في ساعات الضيق، ويقدم لهم الناس النذور والأضاحي ويتشفعون بهم.

مورفولوجيا المعجزة (التحليل البنائي للمعجزة)



فإذا قمنا بتحليل المعجزة ودراسة الشكل الخارجي (مورفولوجيا) لها، والخطوات التي تمر بها المعجزة، والمقصود هنا (معجزات القديسين)، وذلك من خلال قراءة وسماع مئات المعجزات التي تملأ كتب الكنيسة القبطية، وبالنظر إلى الرسم المبين أعلاه، نستطيع أن نوضح المراحل التي تمر بها المعجزة:

المرحلة الأولى: (١-٢) [الحياة الطبيعية]

وفيها يكون الشخص في حالته الطبيعية، ويسلك حياة هادئة دون أن يعكر صفوه أي شيء.

المرحلة الثانية: (٢—٣) [بداية الأزمة]

عند النقطة رقم (٢) تحدث بداية الأزمة أو المشكلة التي تواجهه أو تعترضه، والتي من شأنها أن تعكر صفو حياته الطبيعية التي كان يسلكها قبل الأزمة. وتأخذ الأزمة أشكالاً عديدة وصورًا مختلفة؛ فقد تكون مرضًا معينًا أصابه فجأة، أو مشكلة عميقة، أو روحًا شريرة لبسته، أو حادثة معينة، أو مشكلة صادفت الأسرة، أو مشكلة في العمل... إلخ. ويبدو لصاحب الأزمة أن مشكلته أو مرضه ليس له حل أو علاج.

والمسار (٢-٣) يمثل (هبوط) المنحنى الطبيعي لحياته، ويأخذ شكل الهبوط (الحزن — الضيق — الكرب — الألم).

ويبدأ صاحب الأزمة في هذه المرحلة في تجريب الحلول المنطقية والعقلية والبحث عن الأسباب لحل هذه الأزمة التي حدثت له، فإذا كان مرضًا فإنه يذهب للطبيب ويأخذ العلاج، وإذا كانت مشكلة ما فإنه يأخذ بأسبابها ويحاول حلها بالطرق التي يراها مناسبة، وإذا تم حل المشكلة أو تم الشفاء من المرض فلا داعي للمعجزة وعندها لا يكون للمعجزة وجود.

ويمثل منحنى الهبوط لأسفل ازدياد الأزمة تعقيدًا (النقطة ٣)، وقد يكون حل المشكلة هو نفسه مشكلة أكبر، ففي حالة المرض فإن الحل المطروح هو إجراء عملية جراحية فيشعر المريض بخطورة العملية واحتمالية فشلها واحتمالية فقدان حياته خلالها، وربما يساعد على ذلك خبرات أليمة سمع عنها المريض من الآخرين أثناء إجراء عمليات جراحية لهم، وأحيانًا أيضًا الخوف نفسه يكون عاملاً مؤثرًا.

وقد يكون هناك مرض يعجز الطب عن علاجه، مثل: العقم، أو السرطان، أو أمراض أخرى ليس لها علاج. وهناك أيضًا أزمات كثيرة ليس لها حل، وربما يساعد على تفاقم الأزمة عجز مادي، أو عجز طبي، أو جهل، أو أعراف وتقاليد.

المرحلة الثالثة: (٣-٤) [طلب القديس]

بعد وصول الأزمة إلى أقصى درجة من التعقد، والتي نمثلها بالنقطة رقم (٣) يبدأ الشخص في طلب القديس أو الصلاة لله والصلاة للقديس ليحل له أزمته، وفي هذه المرحلة يبدأ المنحنى في الصعود؛ حيث يمثل صعود المنحنى الاتجاه نحو المعجزة وسمو الشخص في حالة من الصلاة الحارة من أجل الشفاء أو من أجل حل الأزمة.

وطلب القديس هنا له عدة أشكال: كمن يقف أمام أيقونة القديس ويصلي لحل أزمته، أو هو يقرأ كتابًا عن حياة القديس ومعجزاته، أو يتشفع به، أو أنه يسمع عنه من الآخرين عن قوته وشفائه للأمراض، أو يزور كنيسته أو ديره ويصلي هناك. ويعتقد كثير من الأقباط أن طلب الشخص يكون أقوى في مكان القديس الموجود فيه رفاته أو على مذبحه أو أمام مقصورته، وقد تكون صورة صغيرة للقديس (تمثل القديس نفسه) مما يحتفظ بها الأقباط في (حافظة نقودهم، أو يلصقونها على مكاتبهم أو يعلقونها في سيارتهم أو صورة كبيرة في بيوتهم) ولا يخلو بيت أي قبطي من أكثر من صورة لأي قديس، وخاصة القديسة العذراء مريم بالإضافة إلى القديس الشفيع للأسرة، ويتم مناجاة القديس إما في صورة طلب ورجاء لحل الأزمة وإما في صورة عتاب على نسيان القديس له.

ويدخل في هذا أيضًا أخذ الأشياء التي يعتقد فيها بقداستها من قبل القديس، مثل: أخذ رمال من دير القديس أو ماء، أو صورة بها أثر من حنوط القديس، وغيرها من طقوس البركة التي هي أيضًا من شأنها أن تشفي المرض، ويأخذ المنحنى في الصعود بالصلاة الحارة والذهاب الدائم للكنيسة ليس لطلب القديس المقصود فقط، بل لطلب كل القديسين، ويطلب الشخص من الآخرين الصلاة لأجله.

وتبنى هذه المرحلة على (الفعل) أو الاتجاه الإيجابي في طلب القديس والسعي نحوه بكل الوسائل، وهناك بعض من الرجال الأتقياء الأحياء والمشهود لهم بمعجزاتهم، يذهب إليهم أصحاب الأزمة.

المرحلة الرابعة: (٤-٥) [حدوث المعجزة]

عند النقطة (٤) التي تمثل حدوث المعجزة:

فبعد صلاة حارة وطلبة قوية وسمو روحي يستجيب القديس لحدوث المعجزة. وهناك عدة طرق تحدث بها المعجزة، ولكنها تنويعات مختلفة لصورة واحدة، فكأن يتم إجراء عملية جراحية يقوم بها القديس للمريض أثناء النوم وبعدها يعافى تمامًا، وتظهر آثار المعجزة عن طريق وجود صلبان مطبوعة على ملابس المريض، أو وجود (قطن وشاش) أو وجود صورة للقديس على ملابس المريض، ويرى المريض أثناء نومه أن القديس أتى إليه وأجرى له العملية، وللتأكيد يجري المريض فحصًا طبيًّا أو عمل أشعة، أو إذا كان أعمى يبصر، وإذا كان به شلل يستطيع أن يمشي، وإذا كان هناك عقم فبعد زيارة القديس في كنيسته ويقوم بصلاة حارة تحدث المعجزة ويحدث الحمل. أو إذا كانت هناك مشكلة ما فبعد الطلبة تحل المشكلة في وقتها المناسب، وقد يساعد على ذلك وجود الأشخاص المشهود لهم بالقداسة، فيقولون لصاحب المشكلة أو صاحب الأزمة إن شاء الله مشكلتك ستحل – بشفاعة القديس مار جرجس ربنا سيعطيك ولدًا – زي اليوم هاتيجي الدير ومعاك شنودة – جرجس – البابا كيرلس يشفيك)، وبعدها تنفك الأزمة.

وفي حالة ما إذا كان هناك ألم أو جرح في منطقة معينة فإنهم يميلون إلى استخدام صورة أو رمل مقدس أو زيت مقدس من كنيسة قديس معين وبعدها يتم الشفاء.

والنقطة رقم (٤) تمثل انفكاك الأزمة أو حدوث المعجزة. وبعد المعجزة يحدث تغير إيجابي في علاقته بالله وعلاقته بالقديس، أو ربما يعود إلى حالته الطبيعية المرحلة الأولى (١-٢).

ويعتبر كتاب فلاديمير بروب «مورفولوجيا الحكاية الشعبية» أحد المعالم الرئيسية للاتجاه البنائي في دراسة الحكاية الشعبية الخرافية، وأول من زعم إمكان رد الروايات المختلفة للحكايات الشعبية إلى تنويعات على أصل قصصي واحد وفريد. واهتم بروب بالبحث عن التيمات المشتركة التي يتكرر ظهورها في تلك الحكايات بأشكال وصور مختلفة، واستخدم في تحليله مبدأي التماثل والتكرار اللذين استعان بهما ليفي ستروس بعد ذلك في دراسته لأساطير الهنود الحمر.

ومن خلال دراسته كشف عن إحدى وثلاثين وظيفة تؤلف عناصر ثابتة في الحكايات الشعبية.[1]

وعلى غرار التحليل البنائي للحكاية الشعبية نستطيع أن نكمل تحليلنا البنائي للمعجزة:

التيمات الثابتة التي يتكرر ظهورها في المعجزات مهما اختلفت الأحداث ومهما اختلف الأشخاص والأماكن والقديسون.

وتتكون هذه التيمات التي أسماها فلاديمير بروب وظائف، والتي يمكن أن نطلق عليها مراحل بناء المعجزة من:

١- مرحلة الحالة الطبيعية كمن يذكر (كانت حياتنا هادئة إلا أن حدث.......)، وفي كثير من روايات المعجزات لا تذكر هذه المرحلة بل تبدأ في المرحلة الثانية مباشرة.

٢- مرحلة بداية الأزمة أو مرحلة الهبوط أو يمكن تسميتها مرحلة الفقد، وهذه هي المرحلة الأساسية التي تقوم عليها المعجزة، وهي تيمة أساسية وتحدد بأفعال تنم عن الفقد مثل (أُصبت – تعرضت لمشكلة – شعرت بألم – كنت أعاني من – مرضت)، ويمكن أن تتكون هذه المرحلة من ٣ خطوات، وهي:

أ- بداية الأزمة.

ب- البحث عن حل للمشكلة بالطرق العلمية والمنطقية والأخذ بالأسباب.

جـ- يبدو فقدان الأمل من حل هذه الأزمة.

٣- مرحلة طلب القديس (مرحلة الصعود). وفيها يتم الصلاة والتشفع بالقديس وطلب المعجزة.

وتحدث فيها الأفعال الآتية (صليت – طلبت من القديس – عاتبته – ذهبت للكنيسة – ذهبت للدير – قرأت كتاب معجزات القديس – تشفعت بالقديس- دهنت جسمي بزيت – وضعت شال القديس– شربت ماء – وضعت أسفل المخدة كتاب معجزات القديس).

٤- مرحلة حدوث المعجزة (الانفراج) وفيها تحدث المعجزة بواسطة القديس وتأخذ أفعالاً تنم عن

١- أحمد أبو زيد، **الواقع والأسطورة**، مكتبة الدراسات الشعبية ٧١ (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢): ٣٦.

حل الأزمة، مثل (شُفيت – فتحت عيني – زال الألم – قال لي القديس – أنجبت – خرجت براءة – قمت)

ويمكن أن نلخص التيمات أو وظائف المعجزة أو مراحل المعجزة كالآتي:

١- حياة هادئة.

٢- الفقد أو بداية الأزمة.

٣- البحث عن حل للمشكلة بالطرق الطبيعية.

٤- يبدو أن المشكلة أو الأزمة ليس لها حل.

٥- طلب القديس والصلاة الحارة.

٦- حدوث المعجزة.

٧- تأكيد للمعجزة.

٨- تمجيد الله والقديس.

من هذه التيمات نخلص إلى نموذج عام للمعجزة ذي تنويعات مختلفة تتكرر وتتتابع فيها هذه التيمات مهما اختلفت الأماكن والأحداث والأشخاص والقديسون، لتؤلف نمطًا واحدًا لكل معجزات القديسين.

مفهوم البركة

يرتبط مفهوم البركة ببحثنا هذا (موالد القديسين) لما فيه من أشياء كثيرة يمارسها الزائر في موالد القديسين بهدف الحصول على البركة، ابتداءً من زيارة دير القديس الأنبا شنودة (موضوع البحث)، التي تعتبر في حد ذاتها هدفًا للحصول على البركة، والصلاة داخل الدير أمام مقصورة القديس أو أمام أيقونته، أو إيقاد الشموع أمام أيقونات القديسين الموجودة بالدير، وكتابة الرسائل للقديس وكتابة أسمائهم بالشمع على زجاج الأيقونة حتى لا ينساهم القديس ويمنحهم البركة في حل مشاكلهم وشفائهم، ولمس الأيقونة باليد ثم تقبيل اليد، أو كما رأيت تضع امرأة كبيرة في السن طرف الستر المعلق أمام الهيكل والموجود عليه صورة القديس على رأسها، أو لمس الصليب والأيقونة – في زفة الأيقونة – حيث يتدافع المئات حول الصليب والأيقونة لمجرد لمسها وبذلك يحصلون على البركة. أيضًا أخذ حفنة من رمال جبل الأنبا شنودة ورشها في البيوت لمنع العقارب والحيات، كذلك شراء أي شيء من الدير من هدايا؛ فول، حمص، أشرطة كاسيت، لحم النذور، لعب، صور للقديس... إلخ. كل هذه الأشياء تمارس بهدف الحصول على البركة. كذلك المبيت داخل صحن الدير الخارجي بهدف الشفاء من الأمراض، أيضًا طقوس الدحرجة على جبل الأنبا شنودة بهدف الحمل والإنجاب، وصلاة الرهبان الموجودين بالدير ووضع أيديهم على الزائرين؛ وذلك بهدف إعطائهم البركة.

والبركة تعني في مفهومها الشعبي زيادة في الخير، وسعة في الرزق، وشفاء من الأمراض، والحمل والإنجاب، وذرية صالحة، والاتقاء من الشر، والصحة والعافية واتقاء شر المرض، والعمر الطويل، والفرح، والسلام، وزيادة المحصول، وزيادة الممتلكات، والكسب المادي، والزواج الصالح.

ولكن من أين أتى هذا المفهوم وما ارتباطه بكلمة البركة؟ (قد وردت الكلمة في العهد القديم ما يقرب من ٤٠٠ مرة، فكلمة بركة هي كلمة عبرية الأصل).

ونرى أن استخدام البركة في العهد القديم كما يلي:

١– الله يبارك الإنسان والخليقة

يحرص العهد القديم في كل أسفاره على أن يقدم الله دائمًا باعتباره الوحيد الذي يملك البركة ويعطيها، فهو «المبارك وحده» فكل بركة هي مستمدة من الله.

وهناك بعض نصوص الآيات التي توضح مفهوم البركة في العهد القديم «وأقطع معهم عهد سلام وأنزع الوحوش الرديئة من الأرض فيسكنون في البرية مطمئنين وينامون في الوعور، وأجعلهم وما حول أكمتي بركة، وأنزل عليهم المطر في وقته فتكون أمطار بركة، وتعطي شجرة الحقل ثمرتها وتعطي الأرض غلتها» (حز ٣٤: ٢٠ – ٢٧).

«ومن أجل أنكم تسمعون هذه الأحكام وتحفظون وتعملون بها يحفظ لك الرب إلهك العهد والإحسان اللذين أقسم لآبائك، ويحبك، ويباركك، ويكثرك، ويبارك ثمرة بطنك، وثمرة أرضك، قمحك، وخمرك، وزيتك، ونتاج بقرك، وإناث غنمك؛ لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك ويرد الرب عنك كل أمراض مصر الرديئة» (تث ٧: ١٢ – ١٥)

«مباركًا تكون في المدينة ومباركًا تكون في الحقل، مباركة تكون سلتك ومعجنك، مباركًا تكون في دخولك ومباركًا تكون في خروجك، يأمر الرب بالبركة في خزائنك وفي كل ما تمتد إليه يدك، ويزيدك الرب خيرًا في ثمرة بطنك وثمرة بهائمك وثمرة أرضك – تكون في الارتفاع فقط ولا تكون في الانحطاط – إذا سمعت لوصايا الرب إلهك التي أنا أوصيك بها اليوم لتحفظ وتعمل (تث ٢٨: ٣٠ – ١٣).

فهذه الآيات توضح مفهوم البركة في العهد القديم، فالبركة هنا ككلمة صالحة صادرة من فم الرب، شملت في فعلها السماء والأرض وقوانين التكاثر والولادة في الإنسان والبقر والغنم، وقوانين الكميات والأعداد في الخبز الذي يملأ السلة، والعجين الذي يملأ المعجنة، وكل الحوائج والأشياء داخل المخازن ثم شملت الكلمة في فعلها المرسلة إليه كل ظروف وأحوال حركة الإنسان في الدخول والخروج والمسير والحرب، والمستوى الاجتماعي بين الناس.

القوانين الطبيعية هنا ذللت وظهرت طائعة خاضعة لكلمة الله، لقد أوقفت الطبيعة عن أن تعطي إخفاقات أو تناقصات أو تقلبات، فلا عقر ولا عقم ولا تشويه ولا كوارث ولا جفاف ولا أمراض.

وبمقتضى كلمة البركة الفعالة الصادرة من الله أخذت الطبيعة أمرًا لتنفك عن حدود قوانينها العاملة بها بحسب الخلق، لتعطي أعدادًا وأرقامًا وكميات وأنواعًا أكثر مما تتحكم فيها قوانين الوراثة والتكاثر

والغذاء والبيئة والجو !! أي بدأت الطبيعة تكشف عن الناموس الفائض المستقر في طبيعتها الجديدة.[1]

ومن الآيات السابقة أيضًا نستنتج شروط من تحل عليهم البركة:

من أجل أنكم تسمعون هذه الأحكام وتحفظون، وتعملون بها..........

إذا سمعت لوصايا الرب إلهك التي أنا أوصيك بها اليوم لتحفظ وتعمل..........

ومن هذا يتضح أن البركة في العهد القديم مشروطة ومقترنة بطاعة الوصية.

يقول الأب متى المسكين:

إن الله استبقى شيئًا من البركة إنما بصورة محدودة، وفي دائرة الماديات وحسب لرءوس البشرية الأوائل نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان وكثير من الأنبياء والقديسين، وذلك بسبب حفظهم لوصايا الله وتقواهم.

وقد أعطى الله لهؤلاء سلطان أن ينقلوا بركتهم ويورثوها لآخر من بعدهم بالدعاء باسم الرب وبوضع اليد.

واختص العهد القديم الكهنة وحدهم بتلاوة البركة على رءوس الشعب، حتى إنه بسبب ذلك صارت لهم الكرامة من جراء ذلك.

ونرى امتداد هذا واضحًا في المسيحية؛ حيث يبارك الكاهن الشعب بفمه في نهاية الصلاة داخل الكنيسة، ويضع يده على رءوس بعض الأفراد ويمنحهم البركة أيضًا.

فليس للإنسان سلطان على إعطاء البركة، إلا إذا نالها مسبقًا من الله لنفسه فيكون له الحق في إعطائها لغيره، أو يكون قد أمر من الله بمنحها للآخرين لأسباب وشروط.[2]

ومن هذا نستطيع أن نستنتج أن الآباء الكهنة والرهبان حينما يضعون أياديهم على رءوس الأفراد

١- متى المسكين، **الافخارستيا والقداس** ([مصر]: دار القديس أنبا مقار، ١٩٧٧): ١٠٤.

٢- المسكين، المرجع السابق: ١٠٠.

وتلاوة البركة لهم، فهم قد نالوا البركة مسبقًا؛ حيث إنهم نالوا البركة من يد الأسقف، والأسقف نال البركة من يد البابا، والبابا هو خليفة القديس مرقس الرسول، وهو بدوره قد نالها من السيد المسيح نفسه. ومن هذا أيضًا نستنتج أن القديس الذي تنطبق عليه الآية السابقة هو: الطاهر اليدين والنقي القلب، الذي لم يحمل نفسه إلى الباطل، ولا حلف كذبًا، هذا ينال بركة من الرب.

وكما ذكرنا أيضًا، فإن البركة مقترنة بطاعة الوصية، وكل هذه الشروط تنطبق على القديسين، وبالتالي فهم ينالون بركة من الرب، ثم يمنحونها الشعب.

وحيث إن القديس مصدر بركة، فكل ما يتعلق بالقديس؛ مكانه وصورته وجثمانه وأيقونته وملابسه وأشياؤه التي كان يستخدمها هي مصدر بركة، بل الرمال التي كان يمشي عليها هي بركة. لذا كثيرًا ما نرى عند دخول الزائرين إلى الكنيسة أو الدير فإن الزائر يقف أمام الهيكل ويصلي إلى الله، ثم يلمس أيقونات القديسين بيده ويقبل يده، فها هو بذلك يحصل على البركة أو ينالها، أو يمكن القول بأن هؤلاء القديسين المتمثلين في أيقوناتهم هم أحياء بأرواحهم. وحين ينظر الزائر إلى القديس في أيقونته فهو يتلمس البركة من روح القديس الحية، بل كثيرًا ما نرى كثيرين يعاتبون القديس ويناجونه بصوت عالٍ ليمنحهم البركة وليحل مشاكلهم.

والترجمة اليونانية لكلمة بركة هي «أولوجية» وهي تعني «كلام حسن» أي أن الله حينما يتكلم حسنًا أو طيبًا بالنسبة للإنسان فهذا الكلام الحسن هو بركة.

ويُعرف الأب متى المسكين «البركة» بـ: كلمة طيبة تصدر من فم الله لصالح الإنسان، غير أن هذه الكلمة هي في نفس الوقت فعالة ودائمة في فعلها، لا تتوقف حتى تبلغ الغاية المحددة التي أرسلها الله من أجلها حسب مسرته.

وفي العهد الجديد نجد أن السيد المسيح قد بارك الخمس خبزات والسمكتين؛ فأشبعت خمسة آلاف رجل، أو ماء عرس قانا الجليل الذي تحول في الأجران إلى خمر إزاء كلمة المسيح الصادرة بالبركة.

وتصلي الكنيسة القبطية في طقس القداس (الأواشي) بأن تطلب البركة على مياه النهر والينابيع، على الهواء والثمار، على الزرع والعشب، على البيوت والمساكن، على اجتماعات الشعب، وعلى مداخلهم ومخارجهم.

كذلك تتخذ البركة مجالها في طقس الزفاف من فم الكاهن بعدما يوصي العريس والعروس **فيتحدث إلى العريس**: «ومتى قبلت ما أوصيتك به، أخذ الرب بيدك وأوسع في رزقك ويرزقك أولادًا مباركين يقر الله بهم عينيك ويمنحك العمر الطويل والعيش الرغد ويحسن لك العاقبة في الدنيا والآخرة». **ويخاطب العروس**: «فإذا سمعت ما أوصيناك به واتبعت جميع الأوامر، أخذ الرب بيدك ووسع في رزقك وحلت البركات في منزلك ورزقك أولادًا مباركين يقر الله بهم عينيك».

وكذلك عندما يُرزق الأب مولودًا نراه يستدعي كاهن الكنيسة ليصلي للمولود ويمنحه البركة في (السبوع)، وكذلك عندما يشتري منزلاً جديدًا فإنه يستدعي الكاهن ليصلي له صلاة خاصة تعرف بتبريك المنازل.

ولا عجب عندما رأيت أحد الأشخاص وقد اشترى سيارة جديدة ودخل بها إلى فناء الكنيسة، وهناك استدعى أحد الكهنة ليباركها، وصلى على ماء ورش السيارة الجديدة. وكانت هناك عادة بين الأقباط قديمًا في (حدود معرفة الباحث الشعبية المحلية) عندما يشتري أحد الأقباط ملابس جديدة فلا بد أن يرتديها ويذهب بها للكنيسة أولاً، ويوضح هذا مدى ارتباط الأقباط وحياتهم اليومية واعتقادهم بمفهوم ومصدر البركة.

وقد سمع الباحث رواية ذكرها له أحد الإخباريين في حديثه عن البركة:

«قيل إن شخصًا ما كان ثريًّا وقد تبرع بمبلغ كبير لقداسة البابا وذهب إلى المقر البابوي، ولكن البابا اعتذر عن مقابلته فأعطى المبلغ الكبير للخادم معتقدًا أنه حينما يرى البابا هذا المبلغ سيقابله ويرحب به، فأخذ الخادم المبلغ وأعطاه للبابا، فأعطى البابا الخادم ورقة مكتوبًا عليها (ربنا يباركك) وأوصلها الخادم لهذا الشخص، وحينما فتح الورقة غضب، وقال: كيف أعطيه أنا مبلغًا كبيرًا ويبعث لي بورقة (ربنا يباركك). حين سمع البابا هذا الكلام استدعاه، وأحضر ميزانًا وقال له: ضع المبلغ في كفة وضع الورقة في الكفة الأخرى، حينئذ ثقلت الورقة المكتوبة عليها ربنا يباركك، وخفت وارتفعت الكفة التي بها المبلغ».

يدل ذلك على مدى اعتقاد الأقباط بالبركة، وكذلك عند بناء منزل جديد، يضعون أسفل أساس المنزل أثناء بنائه صليبًا صغيرًا أو أيقونة صغيرة أو إنجيلاً صغيرًا أو بعض النقود؛ اعتقادًا بحلول البركة في هذا المنزل الجديد.

ويشترك الأقباط والمسلمون في معارفهم وأفكارهم الشعبية، فنجد أن مصطلح البركة كإحدى الأفكار الشعبية الموجودة في المولد، الذي ارتبط بالأولياء، والذي ينتقل من قبر الولي إلى مقصورته وإلى مسجده، قد يرجع إلى نفس الفكرة عند الفاطميين؛ وهي فكرة انتقال البركة من الخليفة الفاطمي إلى ملابسه وإلى المكان الذي ينظر إليه، حتى إلى الأشياء التي يمسك بها، بل تقبيل الأرض التي يسير عليها الخليفة الفاطمي.[1]

١- مصطفى، **الموالد**: ٨٩.

الفصل الرابع

حياة القديس الأنبا شنودة

- حياة القديس
- الدير الأبيض

حياة القديس

ولادة القديس الأنبا شنودة ونشأته

تُروى العديد من المعجزات التي تنبئ بولادة الأنبا شنودة، وأنه سوف يصبح قديسًا، ومنها:

أ- رؤيا والده أبجوس وأمه دروبا

يذكر أنه بينما كان والد القديس راقدًا في إحدى الليالي إذ به يرى رؤيا كأن كوكبًا عظيمًا يشرق على بيته، فتعجب جدًّا لأن ضياءه كان يفوق نور الشمس، ثم سمع صوتًا يقول له: «إن هذا الكوكب يتألق بنور المولود الذي سيولد لك؛ لأنه سيكون عظيمًا أمام الرب».

وفيما هو في هذه الرؤيا إذ بزوجته توقظه وتقول له: لقد رأيت الآن كأن امرأة جليلة المظهر قائمة عند رأسي، وهي تقول: «السلام لك يا دُرُوبَا فتطلعت إليها، وإذا بيدها صليب يلمع مثل الفضة النقية، وقد ناولتني رغيف خبز، وقالت: «تقوي فهو ذا منذ الآن يكون ملاك الله معك ليحرسك حتى تخرج الثمرة الصالحة من أحشائك، حينئذ يكمل فرحك بالغلام المولود، ويدعى اسمه شنودة، وهذا يكون خادمًا للرب ويصنع آيات وعجائب لا تحصى ويبني ديرًا عظيمًا فيجتمع إليه أناس كثيرون» فتعجب زوجها وذكر لها ما رآه هو أيضًا.

ب- رؤيا القديس هرساسيوس المتوحد[1]

وفي يوم من الأيام بينما كان القديس هرساسيوس المتوحد راكبًا دابته وسائرًا في الطريق ومعه وفد من الإخوة الرهبان لقضاء بعض الأمور التي تخص الدير الذي يعيشون فيه، إذ بالقديس يصادف سيدة تستقي ماء، فنزل في الحال عن دابته ومشى على قدميه إليها وقبَّل رأسها ثلاث مرات وباركها.

فلما رآه الإخوة تعجبوا من عمله هذا، ولكن واحدًا منهم وكان قديسًا وحكيمًا قال: (حي هو الرب يا أبي أنك عندما تقدمت إلى المرأة رأيت ملاك الرب يحوط بها).

١- إميلينو، **سيرة القديس الأنبا شنودة رئيس المتوحدين المنسوبة لتلميذه ويصا** (د.م.، د.ت.): ٢٧.

فقال القديس هرساسيوس:

«إن هذه المرأة ستخرج حصاة ملح تصلح كثيرين»[1].

ولم تكن هذه السيدة سوى «دروبا» أم القديس الأنبا شنودة، والتي لم ترزق أبناء قط.

جـ- رؤيا البابا أثناسيوس[2]

ويذكر عن البابا أثناسيوس البطريرك، أنه كان منفيًّا إلى أخميم بواسطة أهل البدع والهرطقات ولاسيما الأريوسين، وفيما كان القديس سائرًا جنوب أخميم إذ به يشاهد معبدًا عظيمًا، وقد التف حول المعبد قوم كثيرون من عبدة الأوثان، فحزن القديس حزنًا شديدًا على حال الكنيسة وكادت الدموع تفيض من مآقيه ونام مهمومًا. وعند منتصف الليل شاء الرب أن يفتقد الأنبا أثناسيوس ويعزيه، فظهر له رئيس الملائكة ميخائيل، وقال له: «السلام لك يا أثناسيوس لا تجزع فإني قريب منك والرب سيكون معك في سائر أيامك والآن اتبعني لأريك قوة ربي». ثم مضى به إلى مكان المعبد، وقال له: «ابسط يديك مثل الصليب» ففعل أثناسيوس كذلك، وفي الحال جرد الملاك سيفًا من نار، ومد يده على أركان المعبد فتهدم للوقت وتساوى مع الأرض، وأحرقت النار جميع المبتدعين والوثنيين الذين كانوا بداخله.

حينئذ رفع البطريرك يده إلى السماء وشكر الله، فقال له رئيس الملائكة: «بعد ثلاثة أيام سيظهر أمرك لأهل المدينة فيعرفون أنك الراعي الصالح المدبر لسائر كورة مصر فيذهبون بك إلى الإسكندرية، واليوم الذي يجلسك الله على كرسي البطريركية سيولد في قرية شتلالا[3] غلام عظيم يدعى شنودة».

وبعد أيام تمت أقوال رئيس الملائكة فرجع أثناسيوس إلى مقر كرسيه، وفي نفس الوقت ولد الطفل شنودة في قرية شتلالا بالقرب من أخميم، وكان ذلك في اليوم السابع من شهر بشنس عام ٣٣٣

١- يقصد أنها ستلد ابنًا يكون مباركًا وعظيمًا.

٢- البابا العشرون في تعداد بطاركة الإسكندرية، وقد ولد بين سنتي (٢٩٥ – ٢٩٨م). وتنيح في سنة ٣٧٣م، وقد اختير للبطريركية سنة ٣٢٨م.

٣- يدعى هذا البلد حاليًّا شندويل.

ميلادية، وكانت ولادته مصدر فرح وابتهاج لوالديه.

كان أبجوس والد شنودة ودروبا والدته مشهورين بالتقوى والورع، وكان شنودة في نفس الوقت وحيدهما فربياه تربية مسيحية سليمة، وهذباه حسب أصول الدين، فشب مثالاً نموذجيًّا للفتى القبطي. وقد كان للبيئة التي عاش فيها – وهي بيئة كلها قداسة وطهارة – أثر بالغ في أخلاق الفتى وطباعه، وظلت شعلة الإيمان متقدة في قلبه في طفولته وشبابه ورجولته حتى كهولته.

كان أبجوس والد القديس يمارس الفلاحة ويقتني بعض الأغنام والماشية، وقد استعان بأحد الرعاة لرعايتها، وعندما نما شنودة طلب الراعي من والدي القديس أن يسمحوا له بأن يأخذ شنودة معه يساعده في أعماله، فوافقا على ذلك بشرط أن يعيده إليهما قبل غروب الشمس. وهكذا ذهب شنودة ليرعى الغنم في البرية، وكان عمر شنودة في ذلك الوقت سبعة أعوام.

ظل القديس في عمله الجديد، وعندما كان يحل المساء يصرفه الراعي، ولكن الغلام لا يتوجه مباشرة إلى منزله، وإنما كان ينعطف صوب بركة تقع خارج القرية ويركع على ركبتيه ويصلي إلى الله في الخفاء، انزعجت والدة القديس بسبب تأخر ابنها كل ليلة فاستدعت الراعي وعنفته على تأخر شنودة، ولكن الراعي أكد لها أنه يصرفه كل يوم عند غروب الشمس.

وفي اليوم التالي صرف الراعي شنودة كالمعتاد وأخذ يتبعه عن بعد، واختبأ الراعي خلف جميزة ورآه يركع أمام البركة ويبسط يديه مصليًا ولاحظ أصابع الفتى تضيء كالشموع، وروائح ذكية كانت تفوح حوله كبخور عطر يصعد مع صلواته، وفي الصباح أخذ الراعي شنودة وسلمه لوالديه وقص على مسامعهما ما شاهده بعينيه. لما رأى أبجوس تصرفات شنودة ابنه فكر في طريقة لإنمائه في التقوى، فلم يجد أحسن من إيداعه عند خاله القديس بيجول[1] الذي كان متنسكًا في غرب النيل بقرب سوهاج.

وبينما كان الأنبا بيجول في إحدى جلساته في ديره قدم شنودة مع والده فشعر بروحه أن هذا سيكون رئيسًا بعده. فقبله ثم أخذ يده ووضعها على رأسه، وقال له: «باركني أنت يا ابني لأنك

١- كان الأنبا بيجول رئيسًا لأحد أديرة الصعيد التي أقامها القديس باخوميوس ... وبدأ الأنبا شنودة حياته الرهبانية في هذا الدير مع خاله (الدير الأحمر).

ستكون رئيسًا وأبًا لجموع كثيرة». ثم قال لوالده: اتركه عندي أسبوعًا لأختبره، وكان عمره في ذلك الوقت تسع سنوات، وكان الأنبا بيجول يتركه في غرفة وحده ويراقبه، وكان يسمع صلاته الحارة ويرى تقشفه.

وفي إحدى الليالي رأى الأنبا بيجول رؤيا عظيمة... ملاك الرب قائمًا عند رأس شنودة الصبي الصغير قائلاً: قم يا بيجول واذهب إلى ابنك شنودة؛ لأنك ستجد بجواره إسكيم الرهبنة.

وهذا الإسكيم قد تبارك بيدي السيد المسيح... فصلى وألبسه إياه؛ لأن الصبي سيكون إناءً مختارًا وراهبًا عظيمًا وسيبني ديرًا كبيرًا تبقي كنيسته دهرًا طويلاً.

وحينما استيقظ القديس بيجول في الصباح أخذ الرداء الذي وجده أمامه، واستدعى شنودة وألبسه إياه، وخصص له قلاية ليتعبد فيها...

فتزايد الراهب الصغير في الروحانية حتى فاق كثيرًا من الشيوخ سابقيه. وكان الأنبا بيجول حينما يريد أن يوبخ راهبًا متكاسلاً يقول: «انظروا للصبي شنودة» الذي كان نشيطًا في حياته الرهبانية، رغم صغر سنه، كان لا يخاف البرية وأول من يذهب للكنيسة في الصلوات الخاصة بالرهبان، وكان في هذه السن الصغيرة مخيفًا للشياطين الذين أرادوا أن يرعبوه بسبب جسارته... فتجمعت الشياطين في شكل ضباب فوق قلايته، فصلى وربطهم؛ فأخذوا يصرخون لكي يتركهم يمضون، ولم ينقذهم من يده سوى الأنبا بيجول الذي كان مارًّا بقلاية القديس، وقال له: اتركهم يا ابني والرب ينتهرهم.

كان القديس لا يأكل إلا عند الغروب كل يوم... ولا يشبع بطنه من الطعام... وكان طعامه الخبز والملح والماء... وفي صوم الأربعين المقدسة كان يقتات بالنباتات فقط، وقد ذكر عنه المقريزي: أنه مرارًا كان يطوي الأربعين المقدسة... ولتقشفه الزائد ضعف جسده ولصق جلده بعظمه... ومرة في أسبوع الآلام ربط نفسه على صليب تشبهًا بالسيد المسيح... وكان يصلي كثيرًا بدموع غزيرة وتوسلات لأجل جميع الناس وخصوصًا الخطاة... وينام قليلاً من الليل. وكان يميل إلى الانفراد خارج الدير ليتفرغ للعبادة... وكان يوصي الرهبان ألا يقطعوا عليه الصلة بخالقه...

يقول الأنبا ويصا تلميذ الأنبا شنودة: إنه بينما كان القديس بيجول يتمشى ومعه الصبي شنودة الراهب الصغير... يتحدثان، وكان معهما أنبا بيشوي الذي من جبل بيصاؤو؛ وكان رجلاً قديسًا

سالكًا في الفضيلة والنسك – بينما هم سائرون إذا صوت من السماء يقول: «اليوم قد تعين شنودة رئيسًا للمتوحدين في كل العالم»... وعندئذ قال أنبا بيجول لأنبا بيشوي: هل سمعت يا أخي بيشوي الصوت الذي جاء من السماء؟ أجاب الأنبا بيشوي: بالحق لقد سمعته... !

وبعد أن تأكد الأنبا بيجول من الأنبا بيشوي أنهما قد سمعا ذلك الصوت، قال أنبا بيجول لأنبا بيشوي: دعنا نسأل الصبي شنودة، وقالوا له: هل سمعت الصوت الذي جاء من السماء؟

أجاب الصبي: لقد سمعته.

فسأله الأنبا بيجول: وما الصوت الذي سمعته؟

أجاب شنودة بدون خبث أو خداع:

سمعت صوتًا يقول: اليوم قد تعين شنودة رئيسًا للمتوحدين في العالم أجمع.

اندهش كلٌّ من الأنبا بيجول والأنبا بيشوي ومجدا الله قائلين: بالحق سوف يصير الصبي شنودة إنسانًا كاملاً وقديسًا.

ومن ذلك الوقت عاشر القديس الرهبان الأتقياء ليقتبس منهم الفضائل، ويزداد في كل عمل صالح، وظهرت عدة معجزات للقديس منها:

في ذات مرة بينما القديس في قلايته يمارس الصلاة والصوم ويشتغل بيديه كي لا يسأم، وإذا بالشيطان قد ظهر له بشبه ملاك، وقال له: «السلام لك أيها الشاب الحسن... إن الرب أرسلني لأعزيك... والآن كف عن هذا النسك وانتقل من هذا الكفر إلى الريف لتأكل خبزك مع الإخوة» «فقد قال لي الرب إنه سيعطيك عمرًا طويلاً على الأرض، وإن بقيت في هذا التعب فستموت قبل أوانك». فلما سمع القديس ذلك عرف من كلامه أنه يريد أن يفتره في التقوى، وفهم أنه العدو، وقال له: إن كنت ملاكًا بالحقيقة أتيت لتعزيني فابسط يديك مثال الصليب وصلِّ للرب. فلما سمع اسم الرب انصرف بخزي عظيم. وحاولت الشياطين أن تحاربه كثيرًا، ولكن تمسكه بالصلاة والصوم والاتضاع جعل الشياطين تحترق قدامه كأعمدة الدخان.

الأنبا شنودة واللغة القبطية

وجه القديس أهمية بالغة للغة القبطية، وكانت حينئذ لهجة يصعب الكتابة بها، فعمل على تهذيبها وصقلها وتنقيتها مما أشابها من الآثار البيزنطية حتى استوت على يديه لغة وطنية وصالحة للكتابة، وكان ذلك بداية لنشأة الأدب القبطي. وقد سخر علمه وفصاحته في اللغة القبطية في جهاده الديني والقومي، وإذا به من أبرع من كتب وأروع من خطب باللغة القبطية، ويكشف هذا عن يقظة الوعي المصري القومي آنذاك؛ وتدل الآثار الأدبية للقديس – والتي ما زالت حتى الآن – على سعة اطلاعه، فقد كُتب عنه أنه أعظم كُتاب الأدب القبطي.

الزعيم الديني الوطني

جعل الأنبا شنودة من الدير الأبيض معهدًا دينيًّا واجتماعيًّا ليس فحسب، بل اهتم بالمؤمنين جميعًا، وفتح لهم الدير ورعاهم روحيًّا واجتماعيًّا واستمع إلى شكواهم وآلامهم.

فكان يدعو إلى استرداد حقوقهم المسلوبة ويندد بمظالم الحكام ويكشف عن مثالبهم، بل كان يسعى للقسطنطينية نفسها أيام الحكم الروماني ليرد حقوق مواطنيه.

هذا، وقد عاصر القديس كثيرًا من البدع والهرطقات، منها: بدعة نسطور، وبدعة أوطخيا، ولاون، وغيرهم، وانعقدت المجامع في أثناء حياته وساهم بقسط كبير في تفنيد تلك البدع ودحضها ومقاومة المبتدعين وتثبيت المسيحية على المبدأ القويم، ولم يكتفِ بذلك فقط، بل قام بهدم أصنام أخميم (وبنيوط) بالقرب من أخميم وحرق كتب السحر التي بها.

نياحة (موت) القديس

بعد أن بلغ القديس المائة والعشرين سنة تقريبًا مرض مرضًا شديدًا، فظهر له السيد المسيح في الرؤيا وقواه، وقال له: «كفى مكوثًا في أرض الشقاء... وقد لبست إسكيم الرهبنة وأنت صغير... هلم إلى الراحة».

بعد هذا طلب القديس أطعمة اشتهاها فجُهزت له، ولما قُدمت أمر بوضعها فوق السطح، وبعد ثلاثة أيام طلبها فوجدها فاسدة، فقال: يا نفسي هذا ما اشتهيت.

وفي يوم ٦ أبيب دعا رؤساء الآباء، وقال لهم: «أستودعكم الله لقد اقتضت مشيئة الله أن أرحل من هذا المكان فاحفظوا وصاياي، وأحبوا الإخوة، وأعطوا الصدقات، ولا تحرموا الغرباء من زيارة أديرتنا» وأسلم الروح وجُهز كالعادة ودفُن في الموضع الذي أوصى أن يُدفن فيه، وقام بدفنه يوساب وأخنوخ وتلميذه الخاص ويصا.

تابوت القديس

في عهد البابا ميخائيل السادس والأربعين (في منتصف القرن الثامن الميلادي) جاء أحدهم لزيارة الدير، ورأى تابوتًا خشبيًّا مُطعمًا بالعاج به جسد القديس، فأراد أن يأخذه فقال له الرهبان: لا يمكن لأن صاحبه أوصى بعدم إخراجه، فقال: لا بد من أخذه إما بثمن وإما كهدية...، ثم أمر عشرة رجال أن يحملوه فلم يستطيعوا، فدعا ثلاثين آخرين وهؤلاء أيضًا لم يستطيعوا حمله، وقد بقي جسد القديس داخل الكنيسة إلى آخر عهد الفاطميين.

ولما دخل شيركوه (عم صلاح الدين الأيوبي) كسر الصندوق، ونُقل الجسد منه، وأخفي في أرض خربة غير مكرسة (ورد هذا في كتاب تاريخ كنائس وأديرة مصر لأبي المكارم).

الديـر الأبيـض

يسمى هذا البناء الآن بالدير الأبيض أو دير القديس الأنبا شنودة، ولكن هو في الحقيقة لم يكن إلا كنيسة الدير الباقية منه الآن، وسمي بالأبيض؛ لأنه مبني من الحجر الأبيض، وتميزًا له عن دير الأنبا بيشوي القريب منه والمبني بالطوب الأحمر.

ويقع مبنى الدير غرب سوهاج على بعد حوالي ٦ كم أسفل سطح جبال الصحراء الغربية بسوهاج، وسمي هذا الجبل أدريبة بسبب وجود مدينة فرعونية في القرن ٤ ق.م تسمى مدينة أدريبا. وقد استعمل الأنبا شنودة بعض الأحجار المنقوشة بالنقوش الفرعونية غير الكاملة في بعض المواقع غير الواضحة بالدير، ويذكر بطلر أنه شُيد في عهد الملكة هيلانة.

والبناء الحجري المستطيل الذي يطلق عليه في العادة اسم الدير ليس هو إلا كنيسة الدير، أما الدير وأماكن إقامة الرهبان والمطابخ والمخازن فكانت مُقامة بجوار الكنيسة الحالية، ولكن كل هذا تهدم وبقيت الكنيسة الحالية التي تسمى الدير، والتي تعتبر من أفخر الكنائس التي بقيت في مصر والأثر الرئيسي للمسيحيين.

ويعتبر بناء الدير استعادة للمدينة المصرية القديمة وهو مبني على الطراز المصري القديم وإن اختلفت معه في طريقة البناء إلى حد ما. وبُني الدير من بعض أحجار المعابد الفرعونية القديمة التي كانت موجودة آنذاك، وبعض الأحجار التي قُطعت من الجبل؛ فنرى داخل الدير بعض الأحجار المحفور عليها نقوش فرعونية قديمة وبعض الأحجار صقلت وحفر عليها الصليب.[1] ويشمل الدير الأبيض:

١- كنيسة الدير الأثرية

٢- مباني الدير الأثرية

٣- مباني الدير الحالية

٤- مكتبة الدير

١- سومرز كلارك، **الآثار القبطية في وادي النيل: دراسة في الكنائس القديمة**، ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة وتقديم جودت جبرة، مكتبة الأسرة، الأعمال الفكرية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠): ٢٣٠.

كنيسة الدير الأثرية

الدير الحالي هو كنيسة الدير الأثرية فقط، والشكل الخارجي له عبارة عن سور عالٍ حوالي ٢٠ مترًا في الارتفاع يعلوه كورنيش رخامي به صفان من النوافذ؛ الصف السفلي قريب من منتصف السور، أما الصف العلوي فهو قريب من نهاية السور. والسور له ٢٧ نافذة بكل من الضلعين البحري والقبلي، و٩ نوافذ بكل من الضلع الغربي والشرقي، طول المبنى ٧٥ مترًا وعرضه ٣٧ مترًا.

هذا الشكل يمثل عظمة فن المعمار القبطي لا من حيث المساحة فقط، ولكن أيضًا من جهة ضخامة الأحجار التي بني بها؛ إذ يزيد بعضها على مترين طولًا.

وبه ستة أبواب من كل جهة بابان ما عدا الشرقي، الباب البحري والقبلي من الجرانيت الأحمر، وقد نقش عليه بعض صور الآلهة؛ مما يدل على أنها نقلت من معابد فرعونية.

البناء من الداخل

ويحتوي على المائدة وصحن الكنيسة والهيكل الأثري والمعمودية.

١- المائدة (الجناح القبلي)

به عمودان وثلاث قواعد، وكان هذا الجناح يستعمل كمائدة للرهبان، حتى النهاية غربًا قبة تحتها البئر الأثري من القرن الرابع الميلادي عمقه حوالي ٣٠ مترًا وفيها ٥ أمتار ماء فوق الأرض.

٢- صحن الكنيسة

ويتكون من الجانبين الأيمن والأيسر، ويوجد به ٢٤ عمودًا.

٣- الهيكل الأثري

الهيكل هو المستعمل ككنيسة، ويحتوي على هيكل وسط + هيكل على كل جانب، كل من هذه الهياكل يكون نصف دائرة، وهذا هو النظام البازيليكي لبناء الكنائس على شكل صليب وقباب، وتكوِّن الهياكل الثلاثة ثلاثة أضلاع مربع.

٤- المعمودية

حجرة في الناحية الجنوبية من الهيكل الحالي وإن كان تجويف المعمودية الأثري من القرن الرابع الميلادي. وهناك يوجد بئر أثري، وفي الطريق المؤدي إلى البئر أنصاف صور فرعونية مثل إيزيس وأوزوريس وحورس.

٥- القطعية

يقع بجوار الكنيسة لجهة الغرب بمسافة قليلة محجر به كهف عظيم عميق في قلب الجبل، قد أُخذت منه بعض الأحجار التي بني بها الدير، يسمى هذا بالقطعية. وتَعوَّد عامة المؤمنين زيارة هذا المكان (القطعية)، وخصوصًا من جُربوا بالعقم.

٦- المغارة

وتقع في حضن الجبل على بعد ٢٠٠ متر قبلي القطعية، وهي عبارة عن حجارة كبيرة حوالي ١٠ أمتار × ١٠ أمتار، وغالبًا كانت من مغارة القديس لأجل غرض الوحدة وهو رئيس المتوحدين.

الرهبنة القبطية

لعل أبسط تعريف يمكننا أن نطلقه على الرهبنة هو أنها هجر العالم والاعتكاف على ممارسة الفضيلة والتقوى لتهذيب النفس وترقيتها.

وهي كفكرة فلسفية نشأت عند الشعوب القديمة، فقد عرفتها الوثنية واليهودية ثم المسيحية، وإن كانت عند الأخيرة تختلف اختلافًا بينًا عن الرهبنة التي ظهرت في الديانات الأخرى؛ لأنها استقت مبادئها من الكتاب المقدس وتعاليم الرسل القديسين.

وقد كان أقباط مصر أول من أخرج نظم الرهبنة المسيحية بشكلها الصحيح المعروف، فعندما رسخت أقدام المسيحية في مصر ظهرت بين المسيحيين الدعوة إلى النسك والتحلي بالطهر والعفاف

وعيشة الزهد والتعبد، وقد رأوا في تعاليم السيد المسيح ما شجعهم على ذلك. ويقول المؤرخ كاسيان في معرض التحدث عن منشأ الأديرة القبطية:

إن غرض الرهبان الأول من الانعزال في الصحراء لم يكن سخطًا على العالم أو هربًا من الأخطار المادية أو الروحية؛ إنما كان للتوصل إلى حياة عليا.

وكان للمظالم الرومانية والمذابح الدينية والاضطهادات المرة التي وقع تحت نيرانها الأقباط في القرون الثلاثة الأولى، أن هرع عدد وفير من الأبرار إلى الصحاري؛ حيث توغلوا أفواجًا في الأودية والقفار والكهوف والمقابر وشقوق الجبال والأماكن المهجورة، وفضلوا الحياة القاسية بعيدًا عن المدن والقرى وملذات العالم وملاهيه على حياة يسودها الظلم والطغيان ويستشري فيها الفساد والمخازي الوثنية.[١]

ولا يعزب عن خاطرنا ما كان للرهبنة من أثر بالغ في تاريخ الكنيسة منذ القرون الأولى للمسيحية حتى يومنا هذا، فكانت الأديرة مقرًّا للعلوم والمعارف الدينية.

وفي عهود الاضطهاد الدامية التي اجتاحت الكنيسة خرج من بين صفوف الرهبان المعلمون والمبشرون وأبطال الإيمان.

وقد أهدت مصر العالم المسيحي نظم الحياة الرهبانية، وحملت إليه أيضًا تعاليم الأديرة، وكان لذلك أشد الأثر في انتشار الرهبنة في أوروبا وآسيا.

١- جمعية مارمينا العجايبي، **رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية** (الإسكندرية: جمعية مارمينا العجايبي للدراسات القبطية، ٢٠٠١).

الرهبنة وقيامها في مصر

المصري بطبيعته يميل إلى التدين، وتصبو صفوة المتدينين منهم إلى حياة روحية أعمق، وأصفى سريرة وأكثر صلة بالله، حياة تتوق إلى الكمال والبر، ومن يصل به الحنين الروحي منهم إلى درجة الهيام بالله، يسعى إلى التخلص من المشاغل العالمية والاهتمامات المادية ليتفرغ للخلوة والتأمل.

وقد استمال سحر صحراء مصر محبي الفضيلة والكمال إليها؛ فسماؤها الصافية المليئة بالنجوم تنطق بما وراءها من قوة مبدعة مترفقة، وفضاؤها الشاسع يهيئ فرص الحرية الطليقة، وسكونها الشامل يساعد الإنسان على تركيز أفكاره ومشاعره ووجدانه في الله، وأن يخلو إليه ويخشع أمامه.

وهكذا اندفع المسيحيون المصريون إلى البرية لمغالبة الشر وللخلوة بالله. وكانوا يهدفون من ذلك إلى أن تسمو أرواحهم وتترهف نفوسهم فيستطيعوا التحكم في الجسد وأهوائه، والتحرر من مغريات العالم التي قد تستهوي الإنسان بعيدًا عن خالقه وتطمس القبس الإلهي الكائن داخله.

نظام رهبنة الأنبا شنودة

ظل القديس ملازمًا خاله بيجول حتى توفي آخر عام ٣٨٣م، فاجتمعت كلمة الرهبان على اختيار شنودة خلفًا له.

وسنتناول نظام الرهبنة في أيام الأنبا شنودة من حيث:

أ – شروط القبول

ب– زي الرهبنة

ج– نظام الصلاة

د– الصوم

هـ– التعليم

و– نظام العمل

ز– الإدارة

ح– رعاية القديس للرهبان

أ- شروط القبول

أخذ الأنبا شنودة تعهدًا على الموجودين بالدير بضرورة السير بقوانينه، وأما الجدد فكان ينبغي لهم أولًا البقاء خارج الدير مدة للاختبار، ثم يصرح لهم بالدخول إلى الشركة؛ حيث الالتزام بالشروط التالية:

عيشة الفقر الاختياري

بحيث يتخلى كل منهم عند قبوله شكل الرهبنة عن كل ما يملك، ومن افتخر منهم بما كان يمتلكه كان يُطرد من الشركة ولا يُقبل إلى أن يتوب.

عيشة العفة

فكان يحظر مثلًا على الرهبان مقابلة الراهبات، ولا يُؤذن إلا للشيوخ منهم في مقابلتهن عند الضرورة القصوى.

الطاعة

كان مفروضًا على الراهب أن يطيع رئيسه في أي أمر، وهو في ذلك كالجندي تمامًا، وإن خالف أمرًا ينتظر العقاب ثم الطرد.

ذوبان الفوارق الاجتماعية

كل الرهبان في الشكل والزي سواء.

ب- زي الرهبنة

غالبًا كان زي رهبان الأنبا شنودة مثل زي رهبان الأنبا باخوميوس، وقد قال بولين لاديوز:

إن الراهب كان يلبس قميصًا من الكتان، ويشد حزامًا على وسطه، ويغطي كتفيه وركبتيه بجلد مدبوغ من جلود الماعز، وفوقه رداء ترتبط به قلنسوة مرسوم عليها علامة الدير ويحتذي صندلاً ويمسك عصا أثناء السفر.

ج– نظام الصلاة

كان مفروضًا على كل راهب أن يصلي صلاته الانفرادية، ويتلو المزامير قبل النوم، وبعد منتصف الليل يذهب إلى الكنيسة لحضور الصلاة العامة، وعند دخول الكنيسة يسجد ويتلو الصلاة الربانية ثم يميل بأذنيه لسماع ما يتلى من الفصول المقدسة أو شرحها وبعد انتهاء الصلاة، يعود إلى قلايته ويبقى مدة يناقش نفسه فيما سمعه ثم ينام، وفي الصباح يتلو صلاته الخاصة بالمزامير والطلبات الخاصة أما في ليلة الأحد فيهرع كل الرهبان لحضور صلاة القداس الإلهي، ويكون الكل قد استعد للتناول من الأسرار المقدسة من يد أحد القسوس الرهبان، وكان يأتي في هذه الليلة كثيرون من شعب الجهات المجاورة فقراء وأغنياء وبيدهم نذورهم، وبعد خروجهم من الكنيسة يذهبون إلى مائدة الضيافة ويأكلون من الطعام المُعد لهم ثم ينصرفون إلى بلادهم.

د– الصوم

كان من نظام الأنبا باخوم السماح للرهبان بوجبتين كل يوم، أما الأنبا شنودة وقبله خاله الأنبا بيجول فوجبة واحدة فقط للرهبان وتقتصر على الخبز والبقول، وقد صرح للرهبان المرضى بطعام أحسن بشرط أن يبقوا في مستشفاهم.

هـ– التعليم

فرض الأنبا شنودة على الرهبان أن يحضروا إلى مكان متسع بالدير لسماع العظات التي كان يلقيها عليهم إذا كان موجودًا، والتي كان يرسلها لهم مخطوطة إن كان غائبًا.

وكان يحث فيها الرهبان على التمسك بالفضائل المسيحية وتجنب مخالفتها، ويلاحظ في مقالاته سعة اطلاعه على الكتاب المقدس، وكان المفروض أيضًا على كل راهب أن يدرس الأسفار المقدسة.

و– نظام العمل

كان الرهبان أيام الأنبا بيجول يقتاتون من هبات مؤمني البلاد المجاورة مع طول المسافة عليهم، ولكن لما كثر الرهبان في عهد الأنبا شنودة كان لابد من التفكير في طريق آخر فرأى ضرورة استقلال

الرهبان أنفسهم، وفي هذا فائدتان: الأولى شغل فراغ الراهب حتى تخف محاربته من قبل الشياطين، والثانية الاستفادة المادية من هذا الوقت لتغذية الدير وإنمائه ومساعدة المحتاجين الذين يفدون إليه.

قرر الأنبا شنودة على كل راهب بعد إتمام واجباته الروحية أن يشتغل في المهن التي كان بها قبل دخوله الدير؛ ولذلك اقتضى الحال عمل مصانع وورش، وخص الرهبان بداخل الدير بالاشتغال في الطحن والعجن والخبز، ثم الطبخ وتجهيز المائدة وحراسة مخزن الخبز والغلال وضفر الخوص حسب صناعتهم.

أما المتعلمون فقد خصهم بمدرسة لتعليم الرهبان الخط، والقيام بنسخ الكتب المقدسة وتمويه حروفها وجداولها بماء الذهب.

وكان للرهبان خارج الدير أن يشتغلوا في رعاية المواشي وري البساتين والحرف والزرع والحصاد والدرس والتخزين.

ز- الإدارة

كان للأديرة مديرٌ عامٌّ، كان أولاً الأنبا شنودة وبعده ويصا تلميذه، ثم قلته أرشمندريت أسيوط، ويعاونه مدير ثانٍ، وكان لكل دير رئيس، ولدير الراهبات رئيسة، وانقسمت الأشغال إلى إدارات خاصة بكل فرعٍ كفرع المطبخ إدارة المطبخ... إلخ.

ح- رعاية القديس للرهبان

اتسع نطاق أديرة القديس ما بين دير الأنبا بيشوي والأنبا بيجول شمالاً، والدير الأبيض جنوبًا، وقد ذكر أن قلته أرشمندريت أسيوط صار رئيسًا لأديرة الأنبا شنودة، وهذا ما يدل على أن رهبنة الأنبا شنودة وصلت إلى أسيوط.

وقد بنى أيضًا أديرة للراهبات لما رأى كثيرات منهن قد نذرن بتوليتهن، وقد بلغ عدد الراهبات في هذا الدير ما يقرب من ١٨٠٠ راهبة، وقد كان الأنبا شنودة أيضًا أبًا لعدد هائل من الرهبان يصل إلى أربعة أو خمسة آلاف راهب.

الفصل الخامس
العمل الميداني

- مظاهر الاحتفال بمولد القديس

الزيارة في الأيام العادية

كنيسة الدير الآن تقام بها الشعائر الدينية والقداسات غالبًا كل يوم حسب طقس الكنيسة، وهي تخدم المنطقة التي حول الدير لعدم وجود كنائس قريبة منها، وتقدم الخدمة الروحية ومدارس الأحد والخدمة الاجتماعية وتعول الفقراء والمساكين في المناطق المجاورة.

وفي يوم ٧ أبيب يتم الاحتفال بمناسبة ذكرى نياحة القديس، ويستمر الاحتفال بمولد القديس بداية من هذا اليوم ويستمر لمدة شهر، ٤ أسابيع، وهو المولد المسيحي الوحيد في مصر كلها، يستمر الاحتفال به لمدة شهر؛ حيث تظهر مظاهر المولد من أنشطة روحية واقتصادية وترفيهية وعلاجية...إلخ.

الاحتفال السنوي

يعتبر الاحتفال السنوي بالقديس هو المناسبة الأساسية التي يعبر فيها المؤمنون للقديس عن احترامهم له، وتتم الزيارة في المكان الذي يدفن فيه جسد القديس. وجسد القديس كان موجودًا حتى منتصف القرن الثامن الميلادي وبعدها لم يعد موجودًا.[١] إلا أنه يزوره الناس – وكأن جسده موجودٌ أو كأنه حي في هذا المكان – من جميع أنحاء القطر المصري لأخذ بركة المكان وبركة القديس. ولما كانت مدة الاحتفال بهذا المولد تستمر لمدة ٤ أسابيع، تعارف الأقباط بعضهم بين بعض على تقسيم هذه الأسابيع على البلاد؛ فالأسبوع الأول (للسوهاجية) أي محافظة سوهاج، والثاني لأسيوط، والثالث (للخمايمة) أخميم، والرابع لكل الناس الذين لم يزوروه.

وهذا التقسيم متغير فيقول أحد الإخباريين[٢]: إن الأسبوع الأول لأسيوط، فهذا التقسيم يتنادر به الناس وهو غير معمول به، وكل شخص يقول تقسيمة مختلفة عن الآخر.

والهدف من هذه الأعراف غير المعمول بها هو تجمع الأهل والأقارب والأصدقاء معًا في وقت واحد؛ مما يؤدي دورًا اجتماعيًّا هامًّا لتحقيق صلة الود والتقارب.

١- **القديس العظيم الأنبا شنودة رئيس المتوحدين بالجبل الغربي بسوهاج: الدير الأبيض والدير الأحمر** (سوهاج: مكتبة دير الأنبا شنودة، د.ت.): ٩٠.

٢- إخباري رقم (١).

وارتباط زيارة الأنبا شنودة بالأغاني الشعبية واضح في هذا المولد، فقد كان في الماضي؛ حيث يأتي الزوار راكبين جمالاً أو سيرًا على الأقدام وينشدون بعض الأغاني الشعبية.[1]

الاستعداد لزيارة المولد

الزيارة نفسها في حد ذاتها نشاط ترويحي؛ حيث يتجمع الأهل والأصدقاء، وتعم البهجة على الجميع إن كانوا راكبين سيارات أو راكبين جمالاً كما في الماضي، وهم يغنون الأغاني الشعبية في مدح القديس، وهذه الأغنيات تتبادل فيها النساء – وخاصة كبار السن – مقاطع الأغنية. ويبين النص الشعبي مدى الفرحة أثناء الزيارة باستخدام الطبل والتصفيق، وما إن يجيء موعد المولد حتى يتذكر الناس القديس والدعاء إلى الله، ويقول أحد الإخباريين: إنها أيام كبيرة (عظيمة) لارتباطها بأيام الاحتفال بالقديس، وهناك بعض الإخباريين الذين التقيت بهم.

وبسؤالهم عن سبب الزيارة، أجابوا: ذلك لنيل البركة، بسبب العادة، وبسبب الاحتفال، وبسبب الصلاة. ويقول بعض الناس: إن القديس قد زارهم في المنام وأوعز إليهم بالزيارة. ويقول البعض الآخر: إن القديس ناداني وعليَّ أن أذهب إليه، وهناك اعتقاد عند بعض الناس الخوف من غضب القديس إن لم يذهبوا، فهم يعتقدون أنهم إن لم يذهبوا فشيء مكروه ربما يحدث لهم،[2] وعليه فإنه يجب المحافظة على العلاقة الودودة بين القديس والزائر.

وعامة الريفيين يبيتون في الموالد عدة ليالٍ، وعليهم أن يستعدوا بأخذ الفراش الذي يبيتون عليه مثل الملاءات، والسجاد، وأدوات المطبخ البسيطة (كالوقود وأوانٍ للطبخ وأوانٍ لعمل الشاي... إلخ) وأدوات معيشية تكفيهم لقضاء عدة ليالٍ.

أما الذين يعيشون في المدينة فإنهم يكتفون ببضع ساعات في المولد ثم يعودون، وزوار الدير يقيمون الخيام أمام الدير أو يقيمون في الدير.

١- إخباري رقم (٢).

٢- إخباري رقم (٣).

مظاهر الاحتفال بالمولد

١ – زفة الأيقونة

تعتبر زفة الأيقونة من أهم مظاهر المولد القبطي؛ حيث يتقدم الأسقف أو كبيرُ الكهنة وهو ممسكٌ بيده الصليب يبارك الشعب الواقف، ويحمل أحد أفراد الشمامسة أيقونة القديس الأنبا شنودة، وخلف الأيقونة تسير مجموعة كبيرة من الشمامسة بزيهم الخاص وهم يحملون الصلبان، ويخرج الموكب من كنيسة الدير ويطوفون بأيقونة القديس في حفل عظيم بالألحان القبطية وآلات الموسيقى الكنسية.

وأثناء ذلك يتدافع الآلاف من الشعب لأخذ بركة القديس «الأيقونة» عن طريق لمسها وتقبيلها، ويسير الموكب المهيب في مسيرته حول الدير ثم يعود مرة أخرى إلى الكنيسة على مساحة عشرة أفدنة، وأثناء الموكب تقوم مجموعات كبيرة من الشباب المتحمس بهتافات للقديس في صورة انفعالية وعاطفة متأججة؛ حيث يقوم أحد الشباب ببداية الهتاف ويرد عليه الجموع الواقفة، وقد يُحمل أحد الشباب فوق الأكتاف وهو الذي يبدأ بالهتاف ويصاحب هذه الهتافات حركات الأذرع إلى أعلى بصورة مصاحبة لإيقاع الهتاف، وأحيانًا تكون هذه الهتافات تعبيرًا عن السخط العام والضيق، وليجدوا في هذه الهتافات التي أشبه ما تكون بالمظاهرات فرصة للتنفيس عن ضيقهم وغضبهم العام، ويمارسون هذا بجرأة متخذين من المولد وأسوار الدير إطارًا للحماية. وقد رصد الباحث بعض الهتافات السياسية منذ عام ٢٠٠٢، وهي تقال في يومنا هذا.

ومن خلال الملاحظة والمشاهدة يمكن إعطاء تعريف إجرائي «للزفة»، وهي عبارة عن التجمع والتجمهر والالتفاف حول الرمز المقدس لمدحه ونوال البركة، وهي بذلك تعبر عن ملامح الطبقة الشعبية بأداء فني فطري بسيط عن أخلاقها وقيمها وعاداتها وتقاليدها وأفراحها.

وتتم زفة الأيقونة دائمًا في ليلة عيد القديس، وبعدها يستمر الاحتفال بمولد القديس لمدة أربعة أسابيع كاملة؛ لذا في هذا المولد تعد زفة الأيقونة أول الطقوس الدينية أو أول احتفالات مولد الأنبا شنودة، وأثناء الزفة تتوزع قوات الأمن التي تملأ المكان حفاظًا على الأمن ومنعًا للشغب والحوادث.

٢ – الطقوس الدينية داخل كنيسة الدير

أ- الصلاة والدعاء

أول شيء يفعله الزائر عند دخوله الكنيسة هو الصلاة لله والدعاء، فهو يقف بخشوع أمام الهيكل ويصلي، ويبدأ صلاته دائمًا برشم علامة الصليب، ويشكر الله على نعمته ثم الدعاء إلى الله، ويشمل ذلك الطلبات التي يحتاجها أو المشاكل التي يمر بها، ثم يختم صلاته بـ «أبانا الذي....»، وأثناء صلاته يتشفع بالقديس في كل طلباته.

ويعتقد البعض أن الصلاة في هذا الوقت من أيام السنة – موسم الاحتفال – وفي هذا المكان، محققة ومجابة، وهذا يختلف عن رأي الدين في أن الصلاة في أي مكان وأي وقت مجابة، إن لم تتعارض مع إرادة الله الخيرة لكل البشر. وبعض الذين لم يتقربوا إلى الله من قبل، فإنهم يأخذون هذه الزيارة فرصة للصلاة والدعاء.

ب- الصلاة والتشفع أمام أيقونة القديس

بعد ذلك يقف الزائر أمام أيقونة القديس، والأيقونة ما هي إلا تعبير عن روح القديس التي لا ترى ولا تحس، فهي لا تمثل في الواقع الشخص الميت بل الشخص الحي أي روحه.[١] وعلى ذلك يقف الزائر أمامها بكل خشوع ويتضرع ويصلي إلى الله، ويتشفع بهذا القديس، ويدعو القديس، بل قد يصل الأمر إلى معاتبته. وقد رأيت كثيرًا من الزائرين، وخاصة بعض الريفيات والمتقدمات في العمر يتحدثن بتوسل مع القديس بصوت مسموع.

ويقف كل الزائرين أمام القديس – أمام الأيقونة – ويرجونه في حل مشاكلهم وتلبية طلباتهم وشفائهم من أمراضهم، وأن يوسع في رزقهم وأن يهبهم حملاً وإنجابًا، وينجح أولادهم وأن يوفقهم في زواج بناتهم... وكل أمور حياتهم؛ فهم واثقون ومعتقدون في سماع القديس لهم وتحقيق أمنياتهم. وبعد هذا الدعاء والطلبات يلمس الزائر أيقونة القديس باليد ثم يقبل اليد بالتناوب أو على رأس الزائر، وإذا كانت هناك مقصورة أمام جسد القديس فيصاحب الدعاء تقبيل المقصورة، وتتشابه هذه

١- متى المسكين، **حياة الصلاة الأرثوذكسية** (د.م.، ١٩٦٨): ٥٩٣.

الممارسات أثناء الدعاء مع الممارسات التي يمارسها المسلمون عند ضريح الولي.[1]

وقد رأى الباحث امرأة تقبل ستر الهيكل المرسوم عليه صورة القديس، وتضع جزءًا من الستر فوق رأسها، فتعتبر هذه الممارسة بالإضافة إلى تقبيل الأيقونة باليد من طقوس نوال البركة.

ج- إيقاد الشموع أمام أيقونة القديس

وقد ذكر في مخطوطات القرن الثالث، وذلك ضمن وصف طقوس إقامة الصلوات في ذكرى الشهداء تكريمًا وتحية لأرواحهم التي أضاءت في العالم.[2]

وتستخدم الكنيسة عادة في كل صلواتها إيقاد الشموع لما لها من دلالات ورموز دينية. وتقاد الشموع أمام أيقونة القديس ليعلن أن هذا القديس هو السراج المنير الموضوع في هذا المكان ليضيء لكل من فيه، وهو أيضًا بمثابة تكريم للقديس، وتعد الشموع من النذور التي يقدمها الزائرون للقديس وقد ذكرت (وينفرد بلاكمان) أنه تعد الشموع الشكل المفضل للنذور لدى المسلمين والمسيحيين.[3]

ويوقد الزائر شمعة للقديس أثناء صلاته، ويمكن أن يوقد عددًا من الشموع بنفس عدد الذين يذكرهم من أبنائه أو أقاربه أو معارفه أمام القديس، ويعد إيقاد الشموع من طقوس البركة.

د- كتابة الرسائل للقديس

وقد رأى الباحث كثيرًا من الزائرين يخرجون أوراقًا صغيرة من جيوبهم وأقلامًا، ويكتبون رسائل للقديس ثم يطوونها ويضعونها أمام أيقونة القديس - أيقونة أخرى ليست أمامها الشموع - .

ويختلف الذين يكتبون الرسائل باختلاف مراحل عمرهم، فمنهم: الطلاب والشباب وكبار السن، وكذلك أيضًا من الجنسين. ومضمون هذه الرسائل شكاوى، أو طلبات، أو مشكلات، أو يذكر فيها أسماء أشخاص لهم مشاكل داعين القديس أن يذكرهم، أو ورقة صغيرة مكتوب عليها «اذكر يا رب عبدك فلان».

١- أحمد، **النظرية الوظيفية**.

٢- متى المسكين، **حياة الصلاة**: ٦٠٤.

٣- بلاكمان، **الناس في صعيد مصر**: ٢٣٠.

وتكتب هذه الأوراق أو الرسائل – اعتقادًا من أصحابها – كي يتسنى للقديس أن يتذكرهم لكي يحل هذه الشكاوى وألاَّ ينسى أصحابها؛ حيث يعتقد أصحاب هذه الرسائل في قدرات القديس المعجزية وأن لديه كل ما يطلبونه. وتختلف هذه الممارسات في شكلها عن الرسائل المرسلة للإمام الشافعي؛ حيث ترسل الرسائل إليه عن طريق البريد أو أن يقوم شخص معين أمام ضريحه بكتابة الرسائل لأصحابها.

ولكن مضمون ممارسة إرسال الرسائل للقديس أو الولي واحد، وهو أن يقوم القديس أو الولي بتلبية أو حل الشكاوى، وتعمل هذه الممارسات على تقوية الجانب الاعتقادي عندهم.

وتشير دراسة «سيد عويس» إلى أن إرسال الرسائل إلى مقابر الموتى ظاهرة قديمة جدًّا، وجدت في العصر المصري القديم؛ فقد كانت توجه إلى الموتى الأقرباء المقربين في العادة، ولم تكن موجهة إلى إله أو إلى قديس أو إلى ولي؛ كما نلاحظ استمرار هذه الظاهرة المصرية القديمة في العصر المسيحي.[١]

هـ- القداسات اليومية

تكون في كنيسة الدير في هذه الأيام نهضة مستمرة؛ حيث تقام القداسات (الصلوات الكنسية) يوميًّا مع إلقاء العظات للشعب الحاضر، وذلك من قبل الكهنة والرهبان الموجودين بالدير، وهي بمثابة فرصة لتقريب الشعب إلى الله، وأيضًا تقام دورة أيقونة القديس يوميًّا في بخور عشية (صلاة ليلية) وتسبحة نصف الليل.

وهذه الممارسات: الصلاة والدعاء والعظات (الخطب الدينية) لها وظيفة دينية واجتماعية؛ حيث تعمل على تقرب الناس إلى الله والحث على عمل الخير ومساعدة الفقراء والمحتاجين.

١- سيد عويس، **الإبداع الثقافي على الطريقة المصرية: دراسة عن بعض القديسين والأولياء في مصر** (القاهرة: دار الطباعة الحديثة، ١٩٨١)؛ سيد عويس، **من ملامح المجتمع المصري: ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشافعي** ([القاهرة]: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٦٥)؛ **الفلكلور العربي: بحوث ودراسات**، إشراف محمد الجوهري، مج. ١ (القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٦).

٣- تعميد الأطفال في المولد

وتعتبر الموالد مناسبة هامة لتعميد المواليد، والمعمودية من الطقوس الأولى المسيحية التي تجرى للأقباط. وتجرى للطفل؛ الولد بعد ولادته بأربعين يومًا، والبنت بعد ثمانين يومًا، ولكن لا تراعى هذه المواعيد بالضبط عند كل الأقباط، بل تفضل الطبقات الشعبية تعميد أولادهم في الموالد، وهذه الممارسة مأخوذة من معمودية السيد المسيح في نهر الأردن.

وقد ينذر والدا الطفل بأن يعمداه في مولد أحد القديسين فيذهبوا إلى الدير أو الكنيسة ويكون الراهب أو الكاهن قد هيأ المعمودية.

ويبدأ الطقس بأن تحمل الأم طفلها على يدها اليسرى، وترفع يدها اليمنى وتتوجه ناحية الشرق، وتردد وراء الكاهن قوله (أجحدك أيها الشيطان) ثلاث مرات، تكرر هذه الممارسة ناحية الغرب والشمال والجنوب، وبعدها يقوم الشماس بخلع ملابس المولود ثم يأخذه الكاهن ويغطسه في ماء المعمودية ثلاث مرات متتالية باسم الأب والابن والروح القدس، ثم يخرجه من الماء ويدهنه بزيت مقدس ٣٦ رشمة في مفاصله وجميع أجزاء جسمه، ثم تقوم أمه بإلباسه ملابس بيضاء جديدة عليها تطريز الصليب، وأيضًا يوضع على رأسه تاج ثم يضع الكاهن خيطًا حريريًّا يسمى زنارًا ويلفه حول الطفل بحيث يمر تحت إبطه الأيسر، ويعقده بأنشوطة، ويوصي الكاهن والدي الطفل بأن يتعهداه ويربياه تربية مسيحية. وبعد ذلك يتم زفة المولود المعمد حديثًا في الكنيسة؛ حيث تحمله أمه مع أهله وأقاربه ويدورون في الكنيسة وسط جوقة من الشمامسة والموسيقى الكنسية و(الزغاريد) وبعدها يفك الكاهن الزنار، ويصير الطفل مسيحيًّا.

وقديمًا كان الكاهن أو الراهب يأخذ مقابلاً ماديًّا نظير إجراء المعمودية للطفل، في حين تكون الآن بدون مقابل.

٤- النذور والأضاحي

وتقدم النذور والأضاحي في هذه المناسبة.

النذر: هو التعهد بفعل شيء ما إن تحقق أمرٌ ما. ولما كان تحقيق الأمر بيد الله وجب أن يكون النذر لله.

ولما كان الله يجري المعجزات على يد القديسين تحول النذر وأصبح للقديس. وقد يعتقد البعض أن القديس نفسه لما له من أعمال خارقة هو الذي قضى هذا الأمر أو أتم له الشفاء؛ لذا أصبح النذر للقديس.

إن الفكرة الكامنة وراء ممارسة تقديم ذبيحة أو أي نذر فكرة بسيطة، مؤداها أن الإنسان وما يملك إنما هو ملك لله، ولكن إذا أراد هذا الإنسان أن يتجنب سوءًا أو ينقذ حياته من خطر محدق به أو يشفى من مرض ألمَّ به فإنه يفتدي نفسه بهذه الضحية. وترجع فكرة الأضاحي إلى العهد القديم؛ حيث كانت العبادة في القديم بتقديم القرابين من الذبائح، وترجع أيضًا إلى المصريين القدماء؛ حيث كانوا يقدمون النذور للآلهة ظنًّا منهم أن هذه الآلهة قادرة على أن تحقق ما يتمنون.

ومن أهم الأضاحي والنذور التي كانت تقدم للقديس الأنبا شنودة قديمًا الشموع والطيور والحيوانات، مثل: الجدي والأبقار والجاموس والخراف؛ حيث يقوم زوار الأنبا شنودة بإحضار الطيور والحيوانات المنذورة إلى الدير ثم تذبح وتؤكل في وليمة تضم الأهل والأصحاب.

أما الآن فتستمر هذه الأضاحي من الحيوانات؛ حيث يوجد الآن مذبح (سلخانة) لذبح النذور، وإذا تعذر على الشخص الذي ينذر شراء الذبيحة يقدر ثمنها ويقوم بدفع الثمن إلى الدير.

هناك أيضًا تقسيم متعارف عليه، فمثلًا إذا نذر أحد الأشخاص خروفًا للقديس فيعطي ربع الخروف مع الأجزاء الداخلية والفروة، والباقي يأخذه الشخص ليأكله مع أهله وأصحابه.[١]

وتوجد هناك حاليًّا لجنة لبيع الأضاحي المنذورة، وتؤخذ هذه النذور إما للدير وإما للمحتاجين، ويختلف كل فرد عن الآخر في قيمة النذر كلٌّ حسب مقدرته أو كل بما نذر.

وتعد الشموع أيضًا من أهم النذور التي كانت وما زالت تقدم للقديس، وعن طريق متابعة وسؤال الإخباريين وزائري المولد تبين أن هناك حرصًا شديدًا على إيفاء النذر إذا تحقق الأمر الذي نذر من أجله.

ومن ذلك نستدل على أن النذور والأضاحي تؤدي وظيفة دينية في المقام الأول؛ لأنها مرتبطة بالقديس ووظيفة اقتصادية؛ حيث يتم رواج الذبائح واللحوم والبيع والشراء لزوار المولد.

١- إخباري رقم (٥).

٥ - النشاط الاقتصادي

يعتبر النشاط الاقتصادي من أبرز مظاهر المولد؛ وذلك لأن آلاف الزوار يأتون من شتى أنحاء البلاد ويبيتون عدة ليالٍ في المولد؛ لذا يستلزم وجود خدمات المطاعم في الأكل والشراب وتجارة المواد الغذائية. فمن ضمن تلك المواد الغذائية التي تلقى رواجًا في مولد الأنبا شنودة عن طريق الملاحظة: الفول والطعمية والكشري والجبنة البيضاء والمخللات والفول النابت والبيض، ويوجد حاليًّا مقابل الدير مطعم به وجبات ساخنة من اللحوم، التي لم تكن موجودة من قبل، بالإضافة إلى الأكشاك التي تبيع السلع المذكورة سابقًا، وأكشاك لبيع الملوحة والفسيخ، كما يوجد بائعو الفول السوداني والحمص والحلوى والخروب. وتعتبر هذه الأشياء هي التي يحرص عليها الزائر في أخذها معه عند عودته لمنزله، وأيضًا بائعو الفواكه.

ولما كان مولد الأنبا شنودة يتم دائمًا في موعد ثابت في شهر يوليو في الصيف، فإنه موسم لبيع وشراء الفواكه مثل البطيخ والعنب، والمشروبات المثلجة والساخنة أيضًا؛ ففي هذا الوقت تكثر المشروبات المثلجة؛ لأنه يكون وقت الصيف، كالمياه الغازية بأنواعها: العرقسوس والشربات والتمر هندي، وقد كانت في الماضي تباع مياه الشرب؛ حيث كان بائع المياه يحمل على ظهره قربة ممتلئة بالمياه وذلك قبل دخول شبكة المياه في الدير؛ حيث كان الشراب من بئر موجودة في الدير، أما الآن فاختفى بائعو المياه إلا في حدود نادرة، فالبيع للعابرين غير المستقرين بالدير، أما المشروبات الساخنة فتنتشر في جميع نواحي المولد كافيتريات أو أكشاك أشبه «بالغرزة» لعمل الشاي والقهوة والسحلب.

وهناك بيع لعب الأطفال: تنتشر في مولد الأنبا شنودة لعب الأطفال، مثل: السيارات الصغيرة والمسدسات الصغيرة والطائرات الصغيرة التي تدار بالبطاريات الصغيرة.

ولاحظ الباحث استمرار بيع لعب الأطفال القديمة النادرة، مثل الزمارة: الصفيح والشخليلة والطبلة والحصان البلاستيك والعروسة البلاستيك، التي تباع بشكل تجاري كبير للطبقات الشعبية.

أنشطة تجارية مرتبطة بالمولد المسيحي

هناك بعض المظاهر التجارية المرتبطة بالمولد المسيحي:

أ- بائع الصور المسيحية: نلاحظ أن هناك أكشاكًا كثيرة منتشرة في أنحاء المولد حول الدير لبيع الصور المسيحية، ورقية كانت أو على هيئة صور داخل إفريز (برواز من الزجاج)، بعضها به لمبة صغيرة لتضيء، وذات أحجام صغيرة وكبيرة أيضًا، ومن هذه الصور صورة للسيد المسيح، والسيدة العذراء، والأنبا شنودة صاحب الدير، وهي من أكثر الصور مبيعًا في هذا المولد، وصور القديسين، أيضًا بعض المناديل والإشاربات المطبوع عليها صور القديسين، وأيضًا حلية الصليب إذا كانت في صورة ميدالية أو صورة معدنية أو جلدية. وقد اكتشف الدارس أن الطبقات الريفية هي الأكثر حرصًا على شراء مثل هذه الصور والمناديل والصلبان.

ب- بائع أشرطة الكاسيت المسجلة: ينتشر جدًّا بيع أشرطة الكاسيت المسيحية، ومنها عدة أنواع، منها: أشرطة عظات للآباء الكهنة المشهورين، مثل: عظات للبابا شنودة، وعظات للأب مكاري يونان، وهما أكثر اثنين تباع شرائطهما في الموالد، وشرائط كاسيت للترانيم، ومنها: نوعان: ترانيم تؤدى على هيئة فن راقٍ، وهي أيضًا تباع في الكنائس، وآخر فيها أغانٍ شعبية لمدح القديس الأنبا شنودة أو لمدح بعض القديسين كالعذراء مريم ومار جرجس الروماني، وهذه الأشرطة التي فيها الأغاني الشعبية المسيحية هي الأكثر بيعًا للطبقات الريفية والطبقات الشعبية؛ لأدائها الموسيقي على الربابة وبساطتها وقربها من قلوبهم.

٦ – أنشطة ترويحية

أ- الفرجة على المولد

تعتبر الفرجة على المولد من محلات وألعاب ومراجيح وأسواق للبيع والشراء وبيع الصور، وكل بائع يقف أمام بضاعته وينادي عليها في الميكروفون والأضواء الشديدة المبهجة وأشكال الزينة المختلفة والألعاب المعروضة وفرجة الناس على الناس – نشاطًا ترويحيًّا وفنيًّا.

ب- الألعاب

مثل المراجيح، وهي ما زالت مستمرة حتى الآن في حين اختفت لعبة النيشان التي كانت موجودة في الماضي، واختفت أيضًا ألعاب القوى، مع انتشار لعبة الطائرات المصنوعة من البلاستيك

المربوطة في خيط؛ حيث تساعد المساحة الواسعة في الجبل على انتشار مثل هذه الألعاب.

ج- المغنون الشعبيون

قد كان في الماضي بعض المغنين الشعبيين الذين يغنون على الربابة ويمدحون القديس بالأغاني الشعبية، وأوضحت الدراسة اختفاء المغنين الشعبيين، ولكن ما زالت آثارهم؛ حيث نجد مجموعة من السيدات يجتمعن في خيمة يغنين ويطبلن ويزغردن بمدح القديس في مجموعات متفرقة وقليلة.

د- نشاط ترويحي ديني

قد لاحظ الباحث ظهور أشكال ترويحية جديدة مرتبطة بالمولد المسيحي، وهي آلة عرض سينمائي تعرض أفلامًا مسيحية، ويتدفق الزوار على هذه السينما الصغيرة؛ حيث يصطف الزوار في أماكنهم في سرادق كبير وتعرض الآلة الأفلام الدينية، ويعد هذا نشاطًا ترويحيًّا.

٧- النشاط العلاجي (معجزات القديس)

يعد النشاط العلاجي من أهم الأنشطة التي يقوم عليها أي مولد؛ فالزيارة من أجل الشفاء من الأمراض ولحل المشاكل الأسرية والعاطفية والنفسية تعد عاملاً وظيفيًّا هامًّا، وتدخل في الجانب الاعتقادي حول القديس ومعجزاته.

ومن خلال الملاحظة والمشاركة وسؤال الإخباريين والاتصال بالزائرين، أوضحت الدراسة أن هناك تخصصات معروفة للقديس على الشفاء من بعض الأمراض، مثل: طرد الأرواح الشريرة وعلاج العقم وأخذ حفنة من الرمال من جبل القديس لمنع العقارب والزواحف والاعتقاد أيضًا بالشفاء من جميع الأمراض.

أ- طرد الأرواح الشريرة

قد ذاع صيت الأنبا شنودة في تخصصه في طرد الأرواح الشريرة وسلطانه عليها، فيأتي حتى الآن كثير من أهالي المنطقة، وأيضًا من البلاد البعيدة إلى دير القديس الأنبا شنودة بقصد الشفاء من

الأرواح النجسة، ومنهم: المسيحيون والمسلمون، وحينما يدخل الذي به روح نجسة إلى داخل كنيسة الدير يصارع ويصرع ويبكي ويرفع يديه ويقول: «ابعد عني يا أبا شنودة». كل هذا دون أن يصلي له أحد الآباء، ويظل على هذه الحالة إلى أن تخرج الروح الشريرة منه ويمجدوا الله في قديسيه، وهذا بسبب قدسية المكان الذي تقدس بوجود القديس الأنبا شنودة.

ب- العلاج من العقم (الدحرجة)

ومن الجانب الاعتقادي حول القديس قدرته على علاج العقم عن طريق زيارة الدير في وقت المولد والدحرجة من فوق جبل الأنبا شنودة.

وما زالت هذه العادة مستمرة حتى الآن (من خلال مشاهدة الباحث نفسه لهذه الممارسات).

وصف الممارسة

تتم هذه الممارسة عند صعود المرأة العاقر إلى جبل الأنبا شنودة وزيارة المغارة أعلى الجبل؛[1] حيث تُلف المرأة العاقر بملاءة وهي واقفة ويربَط رأسها ورجلاها؛ بحيث لا ترى شيئًا فتكون صورتها شبيهة بالكفن، ثم تسندها سيدة (مختصة بالإشراف على هذه الممارسة)؛ لكي تنام على الرمال ثم تبدأ عملية الدحرجة من أعلى الجبل إلى أسفله، وتتركها لكي تتدحرج وهي واقفة أمامها لئلا تصطدم بحجر.

وإذا توقفت فهي تدفعها برفق حتى تصل إلى أسفل الجبل، وقد يساعد المرأة العاقر أهلها أو أقاربها، وبعدها يفكون الملاءة عنها وتدور حول حجر يقال إنه مقدس ثلاث مرات أو سبع مرات.

هذا المنظر مخيف، وقد رأيت هذا في عيون بعض هؤلاء السيدات، بعضهن خائفات ومترددات، وبعضهن قد تجرأن بالنظر إلى الأخريات. ومن خلال المشاهدة قد رأى الباحث البعض مسيحيات والبعض الآخر مسلمات متحجبات؛ مما يوضح في اعتقاد بعض المسلمات أيضًا بقدرة القديس على الشفاء من العقم. من خلال الملاحظة أيضًا معظم اللاتي يقمن بهذه العادة قرويات وقليلات ممن يسكن المدن، ويمكن معرفة ذلك من خلال ملابسهن إن صح هذا التحليل.

١- (المغارة) يقال إن الأنبا شنودة قد عاش في هذه المغارة فترة متعبدًا.

وتمارس هذه العادة بالذات على جبل القديس الأنبا شنودة بجوار الدير؛ اعتقادًا منهن أن أمنياتهن لا تتحقق إلا في الأماكن المقدسة؛ لأن هذا المكان كان في يوم من الأيام مكانًا للقديس، وقد سار على هذا الجبل فتقدس الجبل من قدسيته، أو أن هناك اعتقادًا أو فكرة أن البركة مرتبطة بكل ما هو قديم أو مقدس.[١]

أو قد يعلل البعض إجراء هذه الممارسة كي تتعرض السيدة التي لا تنجب للخضة، وفي الموروث الشعبي يعتقد أن «خضة تضيع خضة»، أي إن سبب عدم الإنجاب هو الخضة؛ فإن ما يرجع إليها الإنجاب مرة ثانية هو الخضة.

وفي رأينا تحليل وتفسير آخر:

فعند رؤيتنا للمرأة التي تقدم على ممارسة هذه العادة كما هو موضح في الصور الفوتوغرافية، والتي يُعدونها لعملية الدحرجة فهي أشبه بإنسان يقومون بتكفينه؛ حيث يربطون رأسه ورجليه بملاءة تغطي جسمه كله (أشبه بالكفن)، ثم يسندونها كي تنام على الرمال، وعلى مقربة من مقابر موجودة في هذا المكان – فهذه المرأة تقوم بدور تمثيلي لموتها أو كأنها تموت كي يبعث منها مولودٌ جديدٌ (فهكذا بعدما مات أوزوريس بُعث وأنجب ابنه حورس).

أسطورة أوزوريس التي تبرز فيها ثورة البعث ونفخ الحياة في الموتى، وربما تمارس هذه العادة اعتمادًا على المعتقد القديم الذي ربما ذهب وبقيت العادة. وهذه العادة تعتبر أحد طقوس الخصوبة لدى مجتمع البحث.

ج– الوقاية من العقارب والزواحف (رصد العقارب)

اعتاد زائرو مولد الأنبا شنودة صعود الجبل في الصباح الباكر، ثم وهم راجعون يأخذون حفنة من رمال الجبل في كيس بلاستيك أو منديل ثم يرشونها في المنازل للوقاية من العقارب والزواحف.

١– بلاكمان، **الناس في صعيد مصر**: ٨٩.

إن هذه المناطق الجبلية مليئة بالحيات والعقارب طبقًا لظروف هذا المجتمع؛ لذا تحتم على الناس أن يلجأوا إلى هذه الممارسات.

وعند سؤالي عن هذا الاعتقاد أو الظاهرة أجاب أحد الإخباريين: «إنك إذا رأيت عقربًا، وإذا قلت ارصده يا أنبا شنودة، فسترى أن العقرب وقف مكانه دون أن يتحرك ثم تمسك أي شيء وتضربه فيموت».[١]

إن هذه الرمال مقدسة؛ لأنها سارت عليها قدما القديس؛ لذا لها القدرة على الوقاية ومنع دخول العقارب والحيات إلى البيوت[٢] كما يعتقدون.

٨ – الوشم

يعتبر الوشم من الظواهر المنتشرة في الموالد المسيحية ويسميه العامة «الدق»؛ حيث يلجأ الزائرون إلى هذه الممارسة للنقش على الجلد بالصور المسيحية وعلامة الصليب. وإنها لعملية صعبة مؤلمة؛ حيث يستخدم الرجل الذي يقوم بهذه الممارسة آلة صغيرة بحجم كف اليد تعمل بالكهرباء ولها صوت أزيز مرتفع، ويقوم بالنقش على معصم اليد لدق علامة الصليب، وقد يعقبها كتابة التاريخ بنفس الآلة.

ورأيت كثيرًا من الأطفال والنساء يبكون من الألم لهذه الممارسة، ولكنه سرعان ما يرون هذا النقش فيفرحون، ثم بعدما يتم النقش يوضع فوقه صبغة سوداء، وتترك اليد لفترة ليست طويلة إلى أن يجف النقش.

١- إخباري رقم (٦).

٢- إخباري رقم (٧).

ومن مناطق الجسم الأكثر استخدامًا للنقش هي الجهة الباطنية (الداخلية للمعصم) لنقش الصليب ثم عند أسفل الكتف في الجهة الخارجية لنقش صور القديسين، مثل: الأنبا شنودة والقديسة مريم ومارجرجس، ثم ينقش أسفل الرسم تاريخ النقش وتاريخ الزيارة. ونرى أن هذه الممارسة تحقق وظيفة جمالية ودينية.

الفصل السادس

الأغاني والحكايات الشعبية
حول القديس

الأغنية الشعبية

يعرف الدكتور أحمد علي مرسي الأغنية الشعبية بأنها «الأغنية المرددة التي تستوعبها حافظة جماعة، تتناقل آدابها شفاهًا، وتصدر – في تحقيق وجودها – عن وجدان شعبي». ويميزها عن سائر أشكال التعبير الشعبي بأنها تتكون من عنصرين، هما: النص الشعري واللحن الموسيقي، ويغلب عليها اللهجة العامية، وترتبط بدورة حياة الإنسان ومعتقداته.[1]

ويعرف «الكزاندر كراب» الأغنية الفولكلورية بأنها «أي أغنية أو قصيدة غنائية محلية ومجهولة النشأة؛ ظهرت بين أناس أميين في الأزمات الماضية، أخذت تجري في الاستعمال لفترة ملحوظة من الزمن هي فترة قرون متوالية في العادة».[2]

والأغنية الدينية ترتبط أوثق الارتباط بالمناسبات الدينية التي يحتفل بها المجتمع الشعبي في مصر، وتحظى هذه الأغاني باحترام كبير ينبع من طبيعة المناسبة التي تغنى فيها، والمضامين التي تحفل بها، وتتصل في جوهرها بالمعتقدات الدينية المتأصلة في الضمير الجمعي.[3]

ويعتبر المولد مكانًا مناسبًا تتجمع فيه النسوة ويغنين أغاني للقديس. وقد جمع الكاتب هذه النصوص أو الأغاني من زائري المولد.

ومن خلالها نستطيع الكشف عن مدى ارتباط هذه الأغاني بالمعتقدات الخاصة بالقديس، وكذلك ارتباطها بمظاهر المولد، وقد قسمنا هذه النصوص إلى:

١- أغانٍ فولكلورية قديمة (شفاهية)

٢- الهتافات للقديس التي تعتبر من أبسط أنواع الأغنية

١- أحمد علي مرسي، **من مأثوراتنا الشعبية**، مكتبة الأسرة، الأعمال الفكرية، مهرجان القراءة للجميع (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨): ١٤٥.

٢- الكزاندر كراب، **علم الفولكلور**، ترجمة رشدي صالح (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧): ٢٥٣.

٣- مرسي، **من مأثوراتنا الشعبية**: ٢٠١.

أولاً: الأغاني الفولكلورية القديمة الشفاهية

ونقصد بها تلك الأغاني التي كانت تغنيها الجماعة الشعبية قديمًا، ولم تعد الآن تؤدى إلا نادرًا واحتفظت بها الذاكرة الشعبية، وهي تلك التي تغنى في موالد القديسين. ومن هذه الأغاني:

١- عند زيارة القديس

وتعد الزيارة للقديس هي أول مظاهر المولد، وتحرص الجماعة الشعبية على الغناء أثناء المسير إلى مولد القديس:

طـريق أبـو شـنـودة ملـفه ملـفه	**وإن عـطاني ربي لا روحله بزفـة**
طريق أبو شنـودة ملـفات ملفـات	**وإن عطاني ربي لا روحله بزفات**
قبتك يا أبو شنودة من البعد بانت	**لما شافـتها الجمال هامـت وزامت**
يا عتبة أبو شنـودة يا محـلا عتبـها	**افتحـوا للزايـرة تنـصـر ولـدهـا**
يا عتبة أبو شنـودة يا محلا هواهـا	**افـتحـوا للزايـرة تـنـصـر ضـنـاهـا**

وتصف الأغنية طرق الأنبا شنودة (أبو شنودة) بأنها صعبة وكثيرة المنحنيات، ولكن هذا لا يثني الزائر عن هدفه، بل إن كتبت له الزيارة فسوف يذهب وهو سعيد.

وتدل هذه الأغنية على قدمها، فالزائرون كانوا يذهبون بالجمال، وهنا نلحظ قدرة الفنان الشعبي على التصوير البلاغي، فحين رأت الجمال قبة الأنبا شنودة أعلنت الوصول إلى مقصد الرحلة.

وهنا أيضًا إشارة إلى التنصير(التعميد) وسوف تأتي أغانيه فيما بعد.

ويتحدث الفنان الشعبي عن الفتاة التي ليس معها تكاليف الزيارة، ولكنها في شوق إلى زيارة مولد القديس، فهي تعرض عليهم العمل في مقابل أخذها معهم، وتعكس الأغنية التالية بعضًا من مظاهر الاحتفال بالمولد من الغناء وإقامة الموائد:

خـدونـي معـاكـم يـازايـرين الشهـيـد خـدونـي معـاكـم

خدوني معاكم	شاطرة في الغنا	وأسوي غداكم
خدوني خدوني	يازايرين الشهيد	خدوني خدوني
خدوني خدوني	شاطرة في الغنا	وأسوي الفطوري

وبالرغم من أن القديس لم يكن شهيدًا فإن الطبقات الشعبية تطلق عليه هذا اللقب.

وتصف الأغنية الشعبية منظر قبة الدير بأنها عالية، وعليها غريب (غراب) وحمامة وجريدة ومدى ارتباط الأغنية بمفردات البيئة:

عليها جريدة	قبتك يا أبو شنودة	عليها جريدة
عليها جريدة	وأدعى العدوة	وحتى الحبيبة
عليها غريب	قبته عالية	عليها غريب
عليها غريب	يزعق ويقول	يا ما الصبر طيب
عليها حمامة	قبته عالية	عليها حمامة
عليها حمامة	تزعق وتقول	زوار هنا يا ما

ومعظم القديسين يسلكون الجبال ويسكنونها، ودير الأنبا شنودة موجود في الجبل الغربي، ويُروى عنه أنه كان يتعبد في المغارة أعلى الجبل والمعروفة (بالقطعية).

ومن طقوس زيارة الأنبا شنودة صعود جبل القطعية والوصول إلى المغارة، وإنه لطريق صعب، ولكنه يصبح سهلاً بغرض تحقيق الغاية، وهي الزيارة ونوال البركة:

ما واعر يا سيدي	يا طلوع الجبل	ما واعر يا سيدي
ما واعر يا سيدي	واتوسطله الهوا	كلعب الرقيق
ما واعر يا ربي	يا طلوع الجبل	ما واعر يا ربي
ما واعر يا ربي	زقزق الطير الأخضر	نشرب من القرب
سكنت الجبال	ليش كدا يا جدي	سكنت الجبال
سكنت الجبال	سكنوه سكنوه	طبيب للمبالي

ويتفق سكنى القديسين الجبال مع النص الشعبي المشهور:

يــا مــا في الجـبـل ســــواح	**قــاعــديــن في خــلاويــهـم**
بياكلوا الشـوك مع اللـحـلاح	**والحـنــضـل حـلـي لـيــهـم**

لما لهؤلاء القديسين من حياة التعبد والنسك والزهد في الحياة والبعد عن الناس.

وها هي الزائرة قد وصلت إلى باب الدير (عتبة الدير) وهي فرحة بالزيارة، ويصف الفنان الشعبي العتبة التي تطأها الأقدام بالحجارة والياقوت والأحجار الكريمة واستخدام السوارة (أساور الذهب) والعقود (العقد). وتدل هذه الألفاظ العالية القيمة المادية على الحالة النفسية الفرحة التي تصاحب الزائرين عند الوصول إلى دير القديس:

عتبها حجـارة	**بيعتك يا جـدي**	**عتبها حجـارة**
عتبها حجـارة	**تـفـتحه الـزايــرة**	**بـسـن الســوارة**
عتبهـا ياقـوتي	**بيعتك يا جـدي**	**عتبهـا ياقـوتي**
عتبهـا ياقـوتي	**تـفـتحه الـزايــرة**	**بـسـن الـعـقـود**
يا عتبة بلوحة	**بـابـك يـا شــهـيد**	**يا عتبة بلوحة**
يا عتبة بلوحة	**فـرحـتـك يـا قلبي**	**نهار أن تـروحـة**

ويقوم رهبان الدير في أيام المولد بتجهيز المكان وعمل الاستعدادات الكاملة.

كما يصف الفنان الشعبي حالة وصول الزائرين عن طريق سماع صوت آلات الموسيقى الشعبية، وهي: الطبلة والمزمار، وهي نفس الآلات الشعبية التي تستخدم في الأفراح والمناسبات السعيدة:

رش الجنيـنــة	**يـــا راهـــب**	**رش الجنيـنــة**
رش الجنيـنــة	**حس طبـل الـزوار**	**مـا قـرب عـلينـا**
رش الجنــايـــن	**يـــا راهـــب**	**رش الجنــايـــن**
رش الجنــايـــن	**حس طبـل الـزوار**	**مـا هـو بـره بـايـن**

٢- بناء الدير

وعن كيفية بناء الدير تغني الجماعة الشعبية:

طوبة على طوبة مين بناك يادي الدير طوبة على طوبة
طوبة على طوبة دا بناني البنا بناية عجوبة
قالب على قالب مين بناك يادي الدير قالب على قالب
قالب على قالب دا بناني البنا بناية عجايب
حط الشناكل مين بناك يادي الدير حط الشناكل
حط الشناكل دا بنوني الملوك ورسموا الهواكل
حط الحديدي مين بناك يادي الدير حط الحديدي
حط الحديدي دا بنوني الملوك وعلوا صليبي
وشال الحجارة مين بناك يا شهيد وشال الحجارة
وشال الحجارة دا بنوني الملوك وناس الزيارة
مين شال ميه مين بناك يا شهيد مين شال مية
مين شال ميه دا بنوني الملوك لمحي الخطية
مين شال طوب مين بناك يا شهيد مين شال طوب
مين شال طوب دا بنوني الملوك لمحي الذنوب
بنوني جدودي مين بناك يا جدي بنوني جدودي
بنوني جدودي وسع المدارة وعلوا عمودي
بنوني خوالي مين بناك يا جدي بنوني خوالي
بنوني خوالي وسع المدارة وعلوا مقامي
عواميد رفيعة مين بناك يا جدي عواميد رفيعة
عواميد رفيعة كل من راح زاره ما زاح الوجيعة
عواميد رفايع مين بناك يا جدي عواميد رفايع
عواميد رفايع كل من راح زاره ما زاح الوجايع

وهكذا نرى مخيلة الفنان الشعبي تتحدث عن التفاصيل الدقيقة لبناء هذا الصرح العظيم، وأن له الفخر في أن يشرك أجداده وأخواله والزائرين، بل أشرك معهم الملائكة ليضفي قدسية خاصة على هذا البناء العجيب.

٣- بطولة الأنبا شنودة

وعن بطولة الأنبا شنودة يسجل النص الشعبي أغاني حول زعامته وقداسته ومعجزاته، فيصفه الفنان الشعبي بكلمة «السبع» ولا يجد الفنان كلمة أقوى من هذه لما لها من دلالة شعبية ترمز للقوة والبطولة والزعامة، بل هذه الصفة منتشرة في صعيد مصر وسكان الجبل:

سبع يا أبو شنودة يا عين الحمامة — طل من الهيكل وقالي السلامة

سبع يا أبو شنودة يا عين الثريه — طل من الهيكل وسلم عليّا

سبع يا أبو شنودة يا عين الشهية — مد يده اليمين ولطع الغازية

ولا حد زيه — سبع يا أبو شنودة — ولا حد زيه

ولا حد زيه — يا غزالة الجبل — تعلت لضيه

ولا حد كيفه — سبع يا أبو شنودة — ولا حد كيفه

ولا حد كيفه — يا غزالة الجبل — تعلت لطيفه

ويوجد في معظم الأديرة بئر للمياه أو آبار، وإن هذه الآبار بوجودها في هذه الأماكن المقدسة قد تقدست، وإن ماءها دواء للمريض والمسافر:

سلبها حرير — يا كل شربة منها — دوا للعليل

سلبها سلاسل — سقيتك يا جدي — سلبها سلاسل

سلبها سلاسل — يا كل شربة منها — دوا للمسافر

سلبها سلاسل — يا كل شربة منها — دوا للمسافر

٤- معمودية الأطفال في المولد

تعد المعمودية أو التعميد (التنصير) من الطقوس الدينية الأساسية عند الأقباط، وهذه الممارسة المأخوذة من معمودية السيد المسيح في نهر الأردن.

وقد ينذر والدا الطفل بأن يعمداه في مولد أحد القديسين:

تنصر ولدها	رايحة أم الولد	تنصر ولدها
تنصر ولدها	فتحت باب الهيكل	بسن حلقها
تنصر ضناها	رايحة أم الولد	تنصر ضناها
تنصر ضناها	فتحت باب الهيكل	بمفتاح وراها
بجار العمود	واقفة أم الولد	بجار العمود
بجار العمود	يا حَمار خدها	بلون العقود
بجار الستارة	واقفة أم الولد	بجار الستارة
بجار الستارة	يا حَمار خدها	بلون السيجارة

وقديًما كان القمص، أو الكاهن يأخذ مقابلاً ماديًا نظير إجراء المعمودية للطفل، في حين تكون الآن بدون مقابل. وفي النص التالي يوضح أن أم الولد أو جدته تقدم أغلى ما عندها من ذهب أو حلي في إجراء معمودية الطفل:

يا سته الكبيرة	ايش عطيتي القمص	يا سته الكبيرة
يا سته الكبيرة	خمسة «محبوب دهب»	وحلقي رهينة
يا سته الكباير	ايش عطيتي القمص	يا سته الكباير
يا سته الكباير	خمسة محبوب دهب	وحلقي رهاين
هات الواد وعمه	وشيعه	هات الواد وعمه
هات الواد وعمه	واطحن الزعفران	على طرف كم
هات الواد وخاله	وشيعه	هات الواد وخاله
هات الواد وخاله	واطحن الزعفران	على طرف شاله

وتدل عبارة «خمسة محبوب دهب» على قدم النص، فكلمة (محبوب دهب) هي عملة نقدية محلية كانت تستعمل فترة الحملة الفرنسية، وقد رصدها علماء الحملة الفرنسية.

٥- النذور والأضاحي

ويعد المولد هدفًا أساسيًّا لتقديم النذور من قبل الأفراد. ومن أهم النذور والأضاحي التي كانت تقدم للقديس الشموع والخراف والجاموس والطيور؛ حيث يقوم زائرو القديس بذبحها ويأكلونها في وليمة تضم الأهل والأصحاب:

هات الندر لي	والشهيد	هات الندر لي
هات الندر لي	وأنت لك ولدك	وأنا أخد الشوشية
على لحمة ضاني	ما لفلفه حلته	على لحمة ضاني
على لحمة ضاني	والمعالق فضة	تزين الصواني
على لحمة لية	ما لفلفه حلته	على لحمه ليه
على لحمة لية	والمعالق فضة	تزين الصينية

وقد ينذر البعض أشياء غير الذبائح، وتستخدم في الدير كالمحارم والستائر والمفروشات:

لأغني وأغني	وإن عطاني ربي	لأغني وأغني
لأغني وأغني	وأفرشك يا شهيد	محارم بتلي
لأغني وأقول	وإن عطاني ربي	لأغني وأقول
لأغني وأقول	وأفرشك يا شهيد	محارم بلولي
لأغني وأظاظي	وإن عطاني ربي	لأغني وأظاظي
لأغني وأظاظي	وأفرشك يا شهيد	محارم حجازي

ومن النذور والممارسات القديمة التي كانت تجرى في المولد: قص بعض خصلات الشعر المتروكة، والموهوبة، أو المنذورة للقديس، ويقوم الكاهن بقصها.

وها هي المغنية الشعبية توصي الحلاق بأن يحلق له رأسه ويترك بعض الخصلات ليقصها الكاهن في المولد:

وخـليلـه حـتـة	**وزيــــــنـــــة**	**وخـليـلـه حــتـة**
وخـليلـه حـتـة	**واحـرسـه يـارب**	**دا خـــي الـبـنـتــه**
وخـليلـه شـارة	**يـا مـــزيـــــــن**	**وخـليلـه شـــــارة**
وخـليلـه شـارة	**واحـرسـه يـارب**	**دا خـي التـلاتـــة**

وقديمًا كانت هناك بعض السلوكيات غير اللائقة تُمارس في المولد كشرب الخمر، ولكنها انعدمت الآن بسبب توعية رجال الدين والأمن، ويسجل النص الشعبي ما كان يحدث قديمًا:

يـا عتبـة أبو شنودة يـا عالي يا هـاوي	**زلزلوك الجدعان بشرب القهـاوي**
يـا عتبـة أبو شنودة يـا عالي يـا مبني	**زلزلوك الجدعان بشرب الخمرجي**

ثانيًا: الهتافات للقديس في زفة الأيقونة

ويأتي هنا نوع جديد من الغناء، ولا يعتبر غناء بمعنى الكلمة، بل هو نوع من الهتافات للقديس؛ حيث يقوم بهذه الهتافات مجموعة كبيرة من الشباب المتحمس بمدح القديس في صورة انفعالية وعاطفة متأججة؛ حيث يقوم أحد الشباب ببداية الهتاف ويرد عليه الجموع الواقفة حوله، وقد يُحمل أحد الشباب فوق الأكتاف وهو الذي يبدأ بالهتاف. وأحيانًا تدخل هذه الهتافات في التعبير عن السخط العام والضيق، فيجدون في هذه الهتافات التي أشبه ما تكون بالمظاهرات فرصة للتنفيث عن ضيقهم وغضبهم العام، ومن هذه الهتافات:

- أنبا شنودة يا مليح... يا لي زارك المسيح
- حط الكفة على الميزان... وأبو شنودة هو الكسبان
- حط الكفة على الصينية... أنبا شنودة نور لي عنيا
- نورك بان... على الصلبان
- أبو شنودة هو هو... والمسيح اداه القوة

- وسنوي يا سنوي... ونعيش ونزورك سنوي

وقد كشف الباحث عن بعض الهتافات السياسية التي رصدها منذ عام ٢٠٠٢، والتي تندد بالصحافة بسبب ما اعتبره الأقباط إساءة إليهم.

خصائص الهتافات

١- فهي تتكون من شطرتين متقابلتين لهما إيقاع موسيقي، والسجع هو الغالب عليها. والوزن والإيقاع في هذه العبارات أو الهتافات من شأنها أن تصنع الشكل اللغوي المقفل، فما إن تنتهي العبارتان أو الشطرتان المتحدتان على وجه التقريب في الوزن والإيقاع حتى ينتهي الهتاف كما في «المثل».

٢- لا تظهر هذه الهتافات إلا في أوقات الحماس الديني وخاصة في الموالد، وعلى وجه الدقة أثناء زفة الأيقونة، التي من شأنها أن تزيد حماس الهاتفين للقديس، وتنتشر هذه الهتافات وسط الشباب؛ لأنهم أكثر الفئات انفعالاً وحماسًا.

٣- وتعتبر هذه الهتافات نوعًا من الغناء لما لها من إيقاع موسيقي شعبي، كما أنها تعتمد على التكرار الذي يساعد على الحفظ، وهي أيضًا قابلة للإضافة والتعديل. ويصاحب هذه الهتافات حركات الأذرع إلى أعلى بصورة مصاحبة لإيقاع الهتاف.

٤- وتعد هذه الهتافات هي الصورة المعلنة الآن للغناء في الموالد القبطية بعد اندثار الأغنية الفولكلورية التي كانت تُؤدى قديمًا، واختفاء شاعر الربابة أو المداحين في الموالد القبطية.

٥- وإن لم تعتبر هذه الهتافات نوعًا من الغناء الشعبي فلا بد أن تصنف تحت الأدب الشعبي لما لها من خصائص؛ فهي مجهولة المؤلف ولغتها عامية وتعبر عن وجدان شعبي في أوقات معينة ويرددها المجتمع الشعبي وقابلة للإضافة والتعديل.

وهذا النوع أو الصنف من الأدب الشعبي لم يلتفت إليه كثير من الباحثين.

الحكايات الشعبية

وتعد المعجزات ظاهرة منتشرة في المعتقد المسيحي على أيدي القديسين، ومن ضمن هؤلاء القديسين القديس الأنبا شنودة، فله كثير من المعجزات ليست في حياته فقط وإنما بعد وفاته أيضًا. بل إن كثيرًا من القديسين لا يذيع صيتهم ولا يعرفهم أحد إلا بعد وفاتهم عن طريق ظهور معجزاتهم.

ويشتهر القديس بكثرة معجزاته، بل بعظمة معجزاته أيضًا، مثل شفاء الأمراض المستعصية كالسرطان، وكثيرًا ما نسمع أيضًا عن إجراء القديس لعمليات جراحية أثناء نوم المصابين، ويؤكد هؤلاء الناس أن معجزة قد حدثت لهم، و يبرهنون على ذلك بالأشعة والإثباتات الطبية. وهناك معجزات كالشفاء من الأرواح النجسة التي اشتهر بها الأنبا شنودة وديره.

وقد تكون صورة القديس أو كتاب من معجزاته أو بعض حنوطه أو زيارة كنيسته كافيةً لإحداث المعجزة؛ وذلك يتوقف على إيمان الشخص والاعتقاد في القديس، وليس الشفاء من الأمراض فقط هو كل المعجزة وإن كان محورها، ولكن هناك كثير من المشاكل والضيقات التي تُحل عن طريق القديسين.

ومن هذه الحكايات

١- سيدة اسمها مارسيل من شبرا (تقابلت معها في المولد) حكت لي عن معجزة حدثت لها: «قعدت ١٨ سنة من غير خلفة ورحت إلى دكاترة كتير، وقالوا لي إني مش ممكن أخلف (أنجب)، وسافرت أنا وجوزي للخارج وعرضت نفسي على دكاترة هناك، وقالوا لي نفس الكلام؛ وكانت حياتي صعبة مع جوزي بسبب عدم الخلفة. وفي موسم الأنبا شنودة سنة ١٩٩٠ اتصل بنا واحد قريبنا من سوهاج وهو يعمل بالدير في فترة المولد، وهو عارف مشكلتي وقال لي: تعالي احضري مولد الأنبا شنودة. جيت أنا وجوزي وزرنا الدير بعد كده طلعنا القطعية وادحرجت ودرت حول الحجر تلات مرات وقعدنا تلات أيام في الدير وسافرنا. وفي أول شهر أكتوبر عرفت أني حامل، والحمد لله ربنا عطاني بنت اسمها «نعمة»؛ وبعدين رحت للدكتور وقال لي الدكتور دي معجزة، وفي الموسم التالي للأنبا شنودة جينا عشان نوفي الندر للأنبا شنودة.

٢- وراوية أخرى تحكي عن الأنبا شنودة والبابا كيرلس يشفيانه من الورم الخبيث، مسجلة صوتيًّا على CD. يحكي جودة جرجس جودة:

«حدث في بداية شهر فبراير ٢٠٠١ أنني شعرت بتعب وبوجود ورم في الخصية اليمنى، فذهبت إلى الدكتور عزت ثابت أخصائي جراحة بسوهاج، فأخبرني أنه يوجد عندي كيس ماء بالخصية اليمنى ولا بد من إجراء عملية جراحية لاستئصال هذا الكيس.

بعد إجراء العملية الجراحية لاحظ الدكتور وجود شيء غريب في الكيس، فأخبرنا أنه يجب أن نقوم بعمل تحليل لهذا الكيس فأرسلناه إلى القاهرة وكانت المفاجأة وجود ورم خبيث بالخصية اليمنى، فتقرر إجراء عملية جراحية لاستئصال الخصية نفسها.

بالطبع أنا حزنت جدًّا بعدما علمت بذلك وشعرت بخوف من أن يكون هذا الورم منتشرًا في أي جزء آخر من جسمي. ويكمل قائلاً: تم تحويلي إلى معهد الأورام وتم إجراء العملية الجراحية، وبعدها ذهبت لفك السلك: كان دكتور الجراحة يأتي من القاهرة فكشف عليَّ، وقال: إن مرض السرطان أصاب الخصية الأخرى ولا بد من إجراء عملية ثالثة لاستئصال الخصية الثانية، ووقتها كان معي أخي فاتصل به أحد الآباء الرهبان بدير الأنبا شنودة لأنه يحتاج إليه في بعض الأعمال بالدير، فاقترح عليَّ أن نذهب سويًّا للدير لأخذ بركته، ذهبنا للدير وتركني أخي فذهبت للهيكل ووقفت أمام أيقونة الأنبا شنودة وطلبت منه أن يشفيني وصرخت من كل أعماق قلبي وبدموع صادرة من قلب حزين لكي يمد الرب يده ويتحنن عليّ ويشفيني، ودخلت بعد ذلك إلى الحصن الموجود بالدير الذي به مذبح البابا كيرلس السادس، وقفت أمام الهيكل وصليت وطلبت شفاعة البابا كيرلس. وبينما أنا جالس غلبني النوم، وإذ بي أرى القديس الأنبا شنودة والقديس البابا كيرلس في منظر نوراني بديع ولمساني بيديهما الطاهرتين، ولم أشعر بشيء بعدها إلا وأخي يوقظني، وكانت ملابسي الداخلية مليئة بالدم.

وبعدها ذهبت في الموعد المحدد إلى معهد الأورام لإجراء العملية الثالثة دون أن نخبر أحدًا بما حدث، وعندما كشف الطبيب عليّ قال لي: من الذي عمل العملية لك؟ فقال له أخي الحكاية التي حدثت، لم يقتنع الطبيب وطلب بعمل تحاليل أخرى وإشاعات، فأجمع الأطباء أنه لا يوجد عندي

ورم من الأساس وتم تحليل الخصية المستأصلة نفسها فلم يجدوا بها أي ورم، وقال لي الطبيب: أنا مش مصدق اللي أنا شايفه دي معجزة.

٣- النظر يعود لفتاة من أسيوط

تحكي لنا ماجدة سليمان هنري، المقيمة بأولاد بدر مركز الفتح محافظة أسيوط «في ليلة من الأيام حلمت حلمًا مرعبًا وفظيعًا جدًّا كأنه كابوس، فاستيقظت مفزوعة من ذلك الحلم مما كان له أثر على عيني فأصبحت لا أقدر أن أرى بها أي شيء. أخذني والدي وعرضني على أكثر من طبيب، وتم عمل أكثر من إشاعة لي، وتبين من هذه الإشاعات أنه لا يوجد سبب عضوي لعدم الإبصار، فقمنا بعمل إشاعات أخرى تبين أيضًا من نتيجتها عدم وجود أسباب عضوية في العين تؤثر على الإبصار، الأمر الذي أدى إلى حيرة كل الأطباء.

حقيقة أنا حزنت جدًّا وتضايقت، وقلت: « ليه كده يا رب أنا عملت إيه علشان تأخذ مني نعمتك اللي أعطيتها لي، ولكني رشمت نفسي بعلامة الصليب ودخلت حجرتي ووقفت لأصلي وأطلب معونة الرب لكي يمد الرب يده ويلمسني ويرجع النور لعيني وتشفعت بأمنا العذراء مريم والقديس الأنبا شنودة، وعاتبت الأنبا شنودة وقلت: «إزاي أقدر أزور ديرك تاني وأنا مش شايفة» وبلجاجة طلبته وتشفعت به وسلمت الأمر كله لله، بعدها استغرقت في نوم عميق وحلمت حلمًا، وإذا بالسيدة العذراء مريم تقول لي: اذهبي إلى دير الأنبا شنودة وبصلاته سوف يعود النور إلى عينيك، فعلاً ذهبنا أنا ووالدي إلى الدير ووقفت أمام أيقونة القديس الأنبا شنودة لأصلي، وما أرهبها تلك الفترة التي وقفتها لأصلي؛ إذ شعرت برهبة عظيمة وشعرت بأن الأنبا شنودة أمامي، وقلت له: أنا طالبة شفاعتك وصلاتك عني لكي تشفيني ويرجع النور لعيني.

وبينما أنا واقفة أمام الهيكل أصلي فجأة شعرت بأن يدًا خفية تمسح عيني وكأنني في حلم عجيب، وهنا تحدث المعجزة وأبصر بعيني جيدًا، وكأن شيئًا لم يكن فصرخت بأعلى صوتي: النور رجع لعيني، النور رجع لعيني، وكان ذلك على مرأى جميع الحاضرين.

٤- وتحكي سيدة لم تذكر اسمها:

«أنا كان عندي مرض السرطان، ورحت عند كل الدكاترة، فقالوا لي: ليس هناك أمل للشفاء، فقلت: أزور الأديرة والأماكن المقدسة لأني خلاص قربت أموت، وآخر مكان رحت إليه هو دير الأنبا شنودة في الصعيد، وتقابلت مع راهب في الدير، وقلت: يا أبونا أنا عندي السرطان، والدكاترة قالوا لي مفيش أمل للشفاء، ممكن الأنبا شنودة يشفيني، فقال لي: طبعًا؛ لأن شفاعة القديس موجودة في الكتاب المقدس، والكتاب بيقول «غيرالمستطاع عند الناس مستطاع عند الله»، وبعدها شربت شاي في الدير وأبونا صلى لي ودهني بالزيت.

وبعد أربعة أيام، وأنا نائمة بالليل بصيت لقيت الغرفة كلها نور، أنا خفت، بصيت لقيت واحد بيقولي أنت عاملة إيه دلوقتي، قلت له: أنا تعبانة وأعطاني ثلاث رمانات، وقال لي: تأكلي من دول وتبقي كويسة، فقلت له: أنت مين فلم يقل لي اسمه.

وتاني يوم بعدما صحيت من النوم بأقلب المخدة لقيت صورة الأنبا شنودة فعرفت أن ده الأنبا شنودة ورحت عند الدكتور المعالج، عمل تحليل وأخذ عينات، فلم يجد أثر لهذا المرض، فتعجب وسألني: إيه اللي حصل؟ فحكيت له هذه الحكاية، فرد علي: قال لي فعلاً محدش يقدر يعمل هذا العمل إلا ولي من أولياء الله الصالحين، وأنا الحمد لله كل سنة أزور الأنبا شنودة وأجيب الندر اللي عليَّ.[1]

وتعمل هذه الروايات على ترسيخ الاعتقاد في القديسين وفي شفاعتهم وقدرتهم الإعجازية، وتسمى هذه الروايات لدى الأقباط بمعجزات القديسين.

وهناك روايات يرويها العجائز الأقباط حول الأنبا شنودة، وهي منتشرة في مدينة أخميم

١- حكاية الأنبا شنودة مع الشيخ أبي القاسم

كان هناك صديق للأنبا شنودة، وهو شيخ مسلم يسمى الشيخ أبا القاسم في أخميم، وفي يوم من الأيام أراد الأنبا شنودة أن يختبر مدى صداقة الشيخ أبي القاسم له، فقال الأنبا شنودة له: أتكتم

١- **حياة القديس العظيم الأنبا شنودة رئيس المتوحدين** (القاهرة، ٢٠٠٣): ٤٢.

السر يا شيخ فرد عليه: (سرك في بير) – أي إنه يكتم السر – فقال له الأنبا شنودة: إني قتلت رجلاً ودفنته هنا، وأريدك أن تحفظ السر ولا تبيحه لأحد. وتحكي الرواية أن الشيخ أبا القاسم ذهب وأبلغ الأمن فأتى العسكر لكي يقبضوا على الأنبا شنودة، وسألوه عن الرجل الذي قتله والمكان المدفون فيه، فقال لهم: إنني لم أقتل، فقالوا له: أرنا ما تخبئه في هذا المكان، ففتح لهم المكان المزعوم فرأوا وليمة معدة من أفخر أنواع الأكل، وقال لهم: تعالوا اتفضلوا كلوا، وحينئذ كشف الأنبا شنودة خيانة الشيخ أبي القاسم له، وقال الأنبا شنودة له: من بعد اليوم، لا نكون أصدقاء ولا نجلس معًا في بلدة واحدة، فإن اخترت الشرق فأنا أختار الغرب، وعندئذ اختار الشيخ أبو القاسم أخميم، وعليها ترك الأنبا شنودة أخميم وذهب إلى الغرب حيث أقام الدير هناك.

وعند تحليلنا لهذه الحكاية فنجد أنها لا تثبت أمام النقد لحظة واحدة؛ لأن:

أولاً: الأنبا شنودة ولد في القرن الرابع سنة ٣٣٣م؛ حيث لم يكن الإسلام قد أتى إلى مصر، وبالطبع لم يكن هناك أي من المسلمين هناك.

ثانيًا: بالطبع لا بد أن مَن يروي هذه الحكاية هم الأقباط، لأن كل طرف يحاول أن يلقي بالخيانة على الطرف الآخر.

ثالثًا: تعد هذه الحكاية – التي يرويها الأقباط – دليلاً على علاقة الشد والجذب والمشاحنات أحيانًا بين الأقباط والمسلمين.

ومن ذكاء هذه الطبقات الشعبية – التي أبدعت هذه الحكاية – أن تلقي بظلالها على الأولياء والقديسين، وتصبغها بالصبغة الدينية لتعطي نفسها تبريرًا لما يحدث من المشاحنات بين الأقباط والمسلمين.

٢- حكاية الأنبا شنودة والمسخوطة

(تروي الحكاية أنه في أيام مولد الأنبا شنودة جاءت امرأة (غازية) تركب حمارًا لترقص في المولد وتمارس سلوكًا منحرفًا بجوار البئر، فغضب الأنبا شنودة ولعنها (سخطها) ولصقها في الحائط، ويدللون على ذلك بصورة آدمية على الحائط.

والملاحظ وجود بعض صور الفراعنة (إيزيس وأوزوريس وحورس) في الناحية البحرية من البئر؛ لأنه من المعروف – وكما ذكرنا – استخدام بعض الأحجار القديمة الفرعونية التي كانت موجودة في هذا المكان في بناء الدير.

وتدل هذه الحكاية على بعض المظاهر المنحرفة التي كانت موجودة في الموالد. وتروي الطبقات الشعبية هذه الحكاية لترسيخ القيم الأخلاقية التي يجب أن تراعى في الأماكن المقدسة، وفي نفس الوقت تدعم نفوذ القديسين وغضبهم لمن يهين أماكنهم.

الخاتمة

نتائج الدراسة

١- كشفت الدراسة عن وجود الموالد المصرية في العصر القبطي قبل مجيء الإسلام مصر بصورتها الحية القريبة من واقعنا الحالي.

٢- أوضحت الدراسة بعض المفاهيم النظرية المرتبطة بالمولد المسيحي كالمعجزة ومفهوم البركة.

٣- أكدت الدراسة لسيرة القديس الأنبا شنودة أن هناك علامات تنبئ بميلاد وحياة القديس، مثل الرؤى التي تظهر لوالديه، وكذلك بعض المعجزات التي يجريها القديس في حياته أو بعد نياحته.

٤- من خلال سيرة القديس كشفت الدراسة عن نظام رهبنة الأنبا شنودة.

٥- كشفت الدراسة - وذلك من خلال أسئلة الإخباريين - عن أسباب زيارة مولد القديس؛ وذلك لنيل البركة، أو بسبب العادة، أو بسبب الاحتفال، أو بسبب الصلاة. ويقول البعض: إن القديس قد زارهم في المنام وأوعز إليهم بالزيارة. ويقول البعض الآخر: إن القديس ناداني وعليَّ أن أذهب إليه. وهناك اعتقاد عند بعض الناس خوفًا من غضب القديس أنهم إن لم يذهبوا فشيء مكروه ربما يحدث لهم، وعليه فإنه يجب المحافظة على العلاقة الودودة بين القديس والزائر.

٦- كشفت الدراسة عن بعض الهتافات السياسية التي تعبر في رمزية عن بعض الاضطهادات التي تحدث أحيانًا للمسيحيين وذلك أثناء زفة الأيقونة، بل أحيانًا تدخل هذه الهتافات في التعبير عن السخط العام والضيق، فيجدون في هذه الهتافات التي أشبه ما تكون بالمظاهرات فرصة للتعبير عن ضيقهم وغضبهم العام متخذة الدير كإطار للحماية.

٧- كشفت الدراسة عن الفكرة وراء تقديم الذبائح أو النذور، وهي أن الإنسان إذا أراد أن يتجنب سوءًا، وينقذ حياته من خطر محدق به أو يشفى من مرض ألمَّ به، فإنه يفتدي نفسه بهذه

الضحية أو ذلك النذر. وترجع فكرة الأضاحي إلى العهد القديم؛ حيث كانت العبادة في القديم بتقديم القرابين من الذبائح، وترجع أيضًا إلى المصريين القدماء؛ حيث كانوا يقدمون النذور للآلهة ظنًّا منهم أن هذه الآلهة قادرة على أن تحقق ما يتمنون.

٨- كشفت الدراسة عن مدى التشابه في الممارسات، التي تجري داخل الموالد المسيحية مع تلك التي تجري داخل الموالد الإسلامية.

٩- ومن خلال الملاحظة والمشاركة وسؤال الإخباريين والاتصال بالزائرين، أوضحت الدراسة الجانب الاعتقادي حول القديس في عمل المعجزات والشفاء من الأمراض، وكذلك طرد الأرواح الشريرة وعلاج العقم، وأيضًا أخذ حفنة من رمال جبل القديس لمنع العقارب والزواحف في البيوت.

١٠- أوضحت الدراسة بعض الاتجاهات المناهضة للموالد، وكذلك الممارسات التي تجري بخصوص العلاج من العقم (الدحرجة)، وذلك من قبل رجال الدين والمثقفين على حد قولهم إنها خرافة.

١١- أوضحت الدراسة أن مظاهر الاحتفالات الشعبية للمولد تحقق بعض الوظائف الدينية والاجتماعية والاقتصادية والترويحية والعلاجية.

١٢- أظهرت الدراسة تتبع التغير في مظاهر الاحتفال من حيث التتبع التاريخي لهذه المظاهر.

١٣- أوضحت الدراسة اختفاء المغنين الشعبيين، ولكن ما زالت آثارهم ممثلة في مجموعة من السيدات القلائل، يجتمعن في خيمة ويغنين في مدح القديس.

ملحق ١

تقارير الزيارات الميدانية

التقرير الأول – الزيارة الأولى

يوم الأحد، الموافق ١٤ يوليو ٢٠٠٤، الساعة الخامسة مساءً.

وهذا اليوم الموافق عيد القديس الأنبا شنودة؛ حيث ذهبت إلى موقف السيارات التي تؤدي إلى قرية أولاد عزاز التي يقع بها الدير، فوجدت السائقين ينادون: الدير... الدير؛ حيث إن السائقين يعرفون موسم بداية المولد. وركبت السيارة الأجرة وأنا أحمل معي الشنطة الصغيرة التي بها أدوات البحث الميداني من: كاميرا فوتوغرافية، وكاميرا فيديو، وكاسيت صغير يعمل بالحجارة، وقلم وأفلام وبطاريات صغيرة. وكانت الأجرة ٧٥ قرشًا في حين إنه في الأيام العادية تكون الأجرة **٣٥** قرشًا، وحيث إنني من مدينة سوهاج والدير يبعد مسافة ٦كم فأخذتها سيارة الأجرة في مسافة أقل من نصف الساعة.

خرجت السيارة من سوهاج إلى قرية أولاد عزاز التي بها الدير في طريقها نحو الجبل الغربي نحو الدير، وسارت السيارة وسط الحقول الخضراء حتى وصلت إلى الجبل، كان عاليًا وبجانبه على مسافة قريبة من الدير المدافن (مدافن المسيحيين) حتى وصلنا إلى الدير الذي أحيط حديثًا بسور كبير وطويل، وبني له مدخل كبير وكتب عليه يافطة دير القديس الأنبا شنودة.

نزلتُ من السيارة ورأيت زحامًا كبيرًا في مدخل الدير، ناسًا كثيرين معظمهم ريفيون، ويبدو ذلك من ملابسهم وأمتعتهم التي يحملونها معهم. وعند مدخل البوابة كانت هناك بوابة صغيرة تسمح لفرد واحد بالدخول فيها، وبها جهاز إنذار ويقف بجانبها أحد أفراد الشرطة والمخبرين، وكان جهاز الإنذار يعمل دائمًا (يعطي رنينًا) عند دخول أي فرد، والجهاز هذا موضوع للكشف عن الأشياء المعدنية (أسلحة)، ولكن لم تكن الشرطة تفتش الأفراد إلا من يشكّون في هويته.

وعلى مسافة بين مدخل بوابة الدير ومدخل الدير نفسه، كان البائعون مصطفين على الجانبين قد نصبوا خيامًا ليست في هذه المسافة فقط، بل في جميع الأماكن، التي تبلغ عشرة أفدنة، فكان الزحام كثيفًا كطبيعة أي مولد. وعند مدخل الدير نفسه باب قصير وضيق يسمح بدخول وخروج فردين متجاورين فقط.

شدني هذا الزحام الكثيف بأن أتخذ جانبًا أمام مدخل الدير لأراقب ما يحدث، فكان هذا التجمع الرهيب يقف أمام مدخل الدير ينتظرون زفة أيقونة القديس، وكأنهم ينتظرون خروج القديس نفسه الذي تنيح منذ أكثر من ١٦٠٠ سنة، واستأذنت في كرسي المكتبة الموجودة أمام مدخل الدير لكي أقف عليه حتى أراقب المشهد، وأعددت الكاميرا كي أصور الزفة، وشاهدت مجموعة كبيرة من الشباب، وقد رفُع البعض فوق الأكتاف وهم يصيحون بالهتافات يمجدون القديس.

وانتظرنا أكثر من ساعة على هذا المشهد إلى أن خرجت أيقونة القديس يحملها أحد أفراد الشمامسة، ويرفع الكاهن البخور أمام الأيقونة، ويتقدمهم مجموعة من الشمامسة بزيهم الكنسي وهم يحملون الصلبان ويطوفون بأيقونة القديس في موكب عظيم بالألحان القبطية والآلات الموسيقية الكنسية (المثلث والناقوس). وأثناء ذلك يتدافع الشعب بأخذ بركة الأيقونة عن طريق لمسها وتقبيلها، ويستمر هذا الموكب في مسيرته ويمر حول الدير وخارج أسوار الدير، ويعود مرة أخرى إلى كنيسة الدير، ومن خلف هذا الموكب جماعات من الشباب والرجال المتحمسين وهم يهتفون بعض الهتافات في مدح القديس أو الدعاء أو بعض الأغاني الشعبية المسيحية، واستمرت زفة الأيقونة ما يقرب من ٤٥ دقيقة، وأنا أتنقل من مكان إلى آخر حتى ألتقط بعض الصور.

وبعد انتهاء الزفة، تهدأ الحركة حول الدير ويسير البعض إلى داخل الكنيسة، والبعض الآخر يبحث عن مكان يجلس فيه في المساحة الموجودة خارج الدير، والبعض الآخر يذهب للفرجة وشراء الأشياء التي تباع في المولد.

التقرير الثاني

يوم السبت، الموافق ٢٢ يوليو ٢٠٠٦، الساعة الحادية عشرة مساءً.

كنت قد عزمت الزيارة والمبيت حتى الصباح في الدير، وكانت المواصلات متوافرة، وخاصة في عشية يوم الأحد – وهو يوم السبت –؛ لأن الناس يحبون أن يبيتوا هذه الليلة ويحضروا صلاة قداس الأحد صباحًا، وكانت المواصلات سهلة ومتوافرة إذ تستمر حتى الصباح، وخاصة ليلة السبت في موسم المولد.

ووصلت إلى الدير وذهبت إلى كنيسة الدير وصليت، وبعدها خرجت خارج الكنيسة حيث مكان المولد وظللت أسير أرقب المولد وأدون الملاحظات في نوتة معي حول مظاهر المولد وطبيعة الزوار، وحول الباعة أيضًا الذين يظلون طوال الليل والنهار مستيقظين، والذين أتوا من أماكن مختلفة يقيمون في المولد لبيع المنتجات الخاصة بالمولد.

وكنت واحدًا من بين الآلاف الذين تجمعوا في الدير، والذين ينتظرون صعود جبل الأنبا شنودة وهو ما يعرف لدى الجمهور العامة بـ «القطعية» وتجمع الآلاف أمام بوابة الدير الغربية القريبة من الجبل في انتظار لحظة فتح البوابة عند بزوغ الفجر، وفي الماضي لم تكن هذه البوابة موجودة فكان الناس يخرجون من تلقاء أنفسهم متتاليين.

وأنت معهم تشعر أن الموقف مهيب من هذا الزحام، وكأنهم تهيأوا لرؤية القديس أعلى الجبل.

وفُتحت البوابة مع بزوغ الفجر وانطلقت الجموع تسير مخلفة وراءها عاصفة من الغبار الرملي، وسرنا في طريقنا نحو الجبل على الكثبان الرملية وكانت خطواتنا رتيبة وصعبة، ولكن الشوق الذي بداخلنا هو الذي كان يدفعنا إلى بلوغ غايتنا والصعود إلى المغارة.

ورغم صعوبة صعود الجبل فإنك ترى أناسًا مختلفي الأعمار من نساء ورجال وأطفال وشيوخ وعجائز، وعندما تنظر إلى الخلف وأنت أعلى الجبل ترى منظرًا عجيبًا من الناس، يواصلون الصعود كأنهم أسراب من النمل البري قد صممت على بلوغ غايتها.

وبعد تعب مرهِق وصلنا إلى قمة الجبل وتزاحم الناس داخل المغارة – التي قيل إن القديس عاش فيها فترات من عمره يتعبد فيها – وقد رسم على المغارة من الخارج صورة للأنبا شنودة وهي صورة حديثة لم تكن موجودة في السنوات الماضية. وعند دخول المغارة ترى بعض الناس يوقدون شموعًا، فمنهم من يصلي داخل هذه المغارة وهو يحمل هذه الشموع، ومنهم من يكتب اسمه بلهب الشمعة على سقف المغارة؛ حيث يحدث دخان اللهب رمادًا يكتب به اسمه وتاريخ زيارته، ومن ضمن العبارات التي يكتبونها على سقف المغارة والحوائط الجانبية «اذكر يا رب عبدك فلان». ورأيت أيضًا بعض هؤلاء يضعون الشموع في الأرض ويحيطونها من الجوانب. ومن أعلى ببعض القطع الصغيرة من الأحجار حول الشمعة فتبدو كفانوس صغير، وترى عشرات من الشموع المعمولة بهذه الطريقة في أرضية المغارة على الجوانب، وهي كمصابيح صغيرة وزعت على جوانب المغارة تضيء جو المغارة المظلمة دائمًا إلا من قليل من أشعة الشمس التي تتخللها أثناء النهار.

التقرير الثالث

يوم الأحد، الموافق ٢٢ يوليو ٢٠٠٧، الساعة السادسة صباحًا.

كانت الزيارة يوم الأحد صباحًا الساعة السادسة، وذلك بغرض صعود جبل القطعية ورؤية السيدات اللاتي يتدحرجن من أعلى الجبل بهدف الإنجاب. وهذه الممارسة تتم في الصباح الباكر، وقبل الغروب أيضًا، ولكن تكثر في الصباح الباكر وخاصة صباح الأحد. وأنا أحمل معي الكاسيت الصغير وكاميرا التصوير استعدادًا لتصوير هؤلاء السيدات أثناء تلك الممارسة، وكان عليَّ أن أصعد الجبل مرة أخرى حتى الوصول إلى المغارة، ولم تكن السيدات يتدحرجن من نفس جهة صعود المارة، بل لهن مكان خاص من الناحية البحرية المواجهة للمغارة، وبعد صعودي جهزت الكاميرا وأعددتها للتصوير وأخذت أرقب متى تحدث لأنني لم أشاهدها من قبل، وسألت الذين هناك وعرفت المكان بالضبط، وانتظرت في شوق حتى تبدأ أول سيدة، وأسئلة كثيرة تدور في رأسي هل ما زالت هذه العادة مستمرة؟ وكيف يتم ذلك؟ ومن هؤلاء السيدات قرويات أو مدنيات؟ طال انتظاري ما يقرب من ساعة، وأخيرًا رأيت امرأة وحولها زوجها وأقرباؤها من السيدات، ثم بدأن يخرجن ملاءة ويلففن امرأة تتوسطهم، وهي واقفة يغلب عليها التردد والخوف والأمل، يربطن رأسها ورجليها بعد ما يلففنها بهذه الملاءة؛ بحيث لا ترى شيئًا أشبه ذلك بالكفن، ثم تسندها سيدة (مختصة بالإشراف على هذه الممارسة) لكي تنام على الرمال، ثم تبدأ عملية الدحرجة من أعلى الجبل إلى أسفله، وتتركها كي تتدحرج وهي واقفة أمامها لئلا تصطدم بحجر، وإذا توقفت فهي تدفعها برفق حتى تصل إلى أسفل الجبل. وقد يساعد المرأة العاقر هذه أهلها أو أقاربها وعندما تصل إلى أسفل الجبل بهذه الطريقة يفكون الملاءة عنها، ثم تدور حول حجر ثلاث مرات (يقال إن هذا الحجر مقدس).

وهذا المنظر مخيف، وقد رأيت ذلك في عيون بعض هؤلاء السيدات فبعضهن خائف متردد، وبعضهن قد تجرأ بالنظر إلى الأخريات، ومن خلال مشاهدتي، فقد رأيت بعض هؤلاء السيدات مسيحيات وبعضهن الآخر مسلمات متحجبات يمارسن هذه العادة رغبةً في الإنجاب. ومن خلال المشاهدة أيضًا والملاحظة إن معظم اللاتي يقمن بهذه العملية قرويات وقليل جدًّا من اللاتي يسكن المدن، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ملابسهن إذا صح هذا التحليل.

وحاولت أن آخذ لقطات لهذه الممارسة بواسطة الكاميرا ونجحت في ذلك، ولكن اعترض البعض على التصوير بالكاميرا، وكاد أن تحدث مشكلة مع أهل السيدة التي قامت بالممارسة، وذلك على حد قولهم؛ لأنه لا يصح تصوير سيداتهم، وذلك اختراق لحرمتهم، ولكني تداركت الموقف واعتذرت لهم، ومضيت وأجريت حديثًا مع السيدة المختصة بالإشراف على هذه الممارسة والتي تتقاضى أجرًا مقابل مساعدتها لهن، لا يتعدى بضعة جنيهات، ويعدنها بتقديم النذور لها إذا أكرمهن الله وأعطاهن مولودًا بأن تأتي كل واحدة وتقدم لها النذر في نفس المكان في السنة القادمة.

وفي نهاية التسجيل اكتشفت أن الشريط لم يسجل شيئًا، وذلك بعد مغادرة السيدة وحزنت كثيرًا، ولكني عند عودتي دونت ما تذكرته من حديثها.

التقرير الرابع

يوم الجمعة، الموافق ٢٤ أغسطس ٢٠٠٧، الساعة السابعة صباحًا.

قُمت بالزيارة إلى دير القديس الأنبا شنودة لحضور القداس الإلهي، والحصول على معلومات عن الرهبان الذين في الدير، وكذلك الأنشطة المصاحبة للدير.

كانت المواصلات سهلة وميسرة وذلك في الأيام العادية في فترة النهار، أما بالليل فتندر المواصلات فيما عدا موسم الاحتفال بالأنبا شنودة، وكان هناك جمع قليل من الناس لحضور القداس، وقد أتوا من القرى المجاورة؛ حيث لا توجد كنائس في تلك القرى، وقد ألقى أحد الرهبان عظة يحث فيها الناس على عمل الخير والمحبة والتسامح، وبعد انتهاء القداس ذهبنا للمضيفة حيث قُدم لنا وجبة الإفطار، عبارة عن أطباق من الفول المدمس وخبز طازج و(مخللات) بدون مقابل مادي. وأجريت حوارًا مع أحد الرهبان وأعلمته عن سبب هذه الأسئلة بهدف إجراء بحث عن مولد القديس، وقد

كان متعاونًا معي وطيبًا فيه روح التسامح والمحبة والوقار والخشوع. وسألته عن أنشطة الدير وعدد الرهبان... إلخ. وأعطاني صورة للقديس وبعض الحنوط وقربانة، وأخيرًا قلت له صلِّ من أجلي وقبلت يديه وغادرت؛ حيث كانت الشمس في هذه المنطقة حارقة والجو شديد الحرارة، ورجعت إلى مدينتي سوهاج التي تبعد ٦ كم في أقل من نصف الساعة.

الإخباريون

إخباري (١)

الاسم: م .ع

الموطن الأصلي: أسيوط

السن: ٤٥

الحالة التعليمية: حاصل على بكالوريوس تجارة

المهنة: راهب

مكان التسجيل: دير الأنبا شنودة

إخباري (٢)

الاسم: ميشيل نور

الموطن الأصلي: جرجا

السن: ٥٢

الحالة التعليمية: يجيد القراءة والكتابة

المهنة: مزارع

مكان التسجيل: دير الأنبا شنودة

إخباري (٣)

الاسم: فوزية باخوم

الموطن الأصلي: أخميم

السن: ٥٩

الحالة التعليمية: حاصلة على الشهادة الابتدائية

المهنة: ربة منزل

مكان التسجيل: دير الأنبا شنودة

إخباري (٤)

الاسم: جيمي إدوارد

الموطن الأصلي: سوهاج

السن: ٢٣

الحالة التعليمية: حاصل على بكالوريوس زراعة

المهنة: مهندس زراعي

مكان التسجيل: دير الأنبا شنودة

إخباري (٥)

الاسم: مايكل رأفت متَّى

الموطن الأصلي: سوهاج

السن: ٢٤

الحالة التعليمية: حاصل على بكالوريوس تربية

المهنة: معلم

مكان التسجيل: دير الأنبا شنودة

إخباري (٦)

الاسم: سمير مشرقي

الموطن الأصلي: سوهاج

السن: ٥٩

الحالة التعليمية: حاصل على دبلوم صناعي

المهنة: ميكانيكي

مكان التسجيل: دير الأنبا شنودة

إخباري (٧)

الاسم: فوزي شحاتة

الموطن الأصلي: سوهاج

السن: ٥٠

الحالة التعليمية: أميٌّ

المهنة: عامل نجارة

مكان التسجيل: دير الأنبا شنودة

إخباري (٨)

الاسم: عادل جرجس جودة

الموطن الأصلي: أولاد هارون – سوهاج

السن: **٣٢**

الحالة التعليمية: حاصل على دبلوم صناعي

المهنة: كهربائي إلكترونيات

مكان التسجيل: دير الأنبا شنودة

المراجع

الكتاب المقدس.

أبو زيد، أحمد. **الواقع والأسطورة.** مكتبة الدراسات الشعبية ٧١. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢.

أحمد، سعاد عثمان. **النظرية الوظيفية في دراسة التراث الشعبي**. رسالة ماجستير. جامعة عين شمس، ١٩٨١.

اميلينو. **سيرة القديس الأنبا شنودة المنسوبة لتلميذه ويصا.** د.م.، د.ت.

الأنبا موسى. **المسيحية والغيبيات.** [القاهرة]: أسقفية الشباب، ٢٠٠٥.

بلاكمان، وينفرد. **الناس في صعيد مصر: العادات والتقاليد.** ترجمة أحمد محمود. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٥.

الجوهري، محمد. **علم الفولكلور**. مج. ٢. سلسلة علم الاجتماع المعاصر ١٧، ٢٢. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠.

حسن، سليم. **موسوعة مصر القديمة.** مكتبة الأسرة. [القاهرة]: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

حنا، رشدي عازر. **الرهبنة القبطية.** رسالة مارمينا. [القاهرة: كنيسة مارمينا شبرا]، ١٩٤٨.

علماء الحملة الفرنسية. **موسوعة وصف مصر.** ترجمة زهير الشايب. مج. ٦. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

علي، عرفة عبده. «موالد مصر المحروسة». **مجلة القاهرة،** العدد ١٥٦ (نوفمبر١٩٩٥): ٥٥.

الفولكلور العربي: بحوث ودراسات. إشراف محمد الجوهري. [القاهرة]: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية. كلية الآداب. جامعة القاهرة، ٢٠٠٠.

قاموس الكتاب المقدس.

القديس العظيم الأنبا شنودة رئيس المتوحدين. [سوهاج]: مكتبة دير الأنبا شنودة سوهاج، د.ت.

كامل، مراد. **حضارة مصر في العصر القبطي.** القاهرة: مطبعة دار العالم العربي، [--١٩].

الكزاندر، كراب. **علم الفولكلور.** ترجمة رشدي صالح. القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧.

كلارك، سومرز. **الأثار القبطية في وادي النيل: دراسة في الكنائس القديمة.** ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم. مراجعة وتقديم جودت جبرة. مكتبة الأسرة. الأعمال الفكرية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠.

لين، إدوارد وليم. **عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم: مصر ما بين ١٨٣٣–١٨٣٥.** ترجمة سهير دسوم. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١.

المدني، السيد أبو ضيف. **تاريخ إقليم سوهاج.** القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢.

مرسي، أحمد علي. **من مأثوراتنا الشعبية.** مكتبة الأسرة. الأعمال الفكرية. مهرجان القراءة للجميع. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨.

المسكين، متى. **الافخارستيا والقداس.** [مصر]: دير القديس أنبا مقار، ١٩٧٧.

المسكين، متى. **حياة الصلاة الأرثوذكسية.** ط. ٢. د.م.، ١٩٦٨.

مصطفى، فاروق أحمد. **الموالد: دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر.** ط. ٢. دراسات في المجتمع المصري. [القاهرة]: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١.

مكفرسون، ج. و. **الموالد في مصر.** ترجمة وتحقيق عبد الوهاب بكر. الألف كتاب الثاني ٢٩٤. [القاهرة]: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

المؤلف في سطور



- أشرف أيوب معوض.
- مواليد سوهاج، ١٩٧٠م.
- حاصل على بكالوريوس علوم وتربية، ١٩٩١م.
- حاصل على دبلوم الدراسات الشعبية بالمعهد العالي للفنون الشعبية أكاديمية الفنون، ٢٠٠٥م.
- نشر له كتاب «حول الثقافة الشعبية القبطية» سلسلة دراسات شعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٠/٧م.
- نشرت له دراسة «الأعراس القبطية» في كتاب «الأعراس الشعبية»، المركز القومي للمسرح والفنون الشعبية، ٢٠٠٦م.
- نشرت له دراسة «على دير العدرا وديني» في كتاب «الموالد»، المركز القومي للمسرح والفنون الشعبية، ٢٠٠٨م.
- نشرت له دراسة «الجبانة وطقوس الحياة» في المجلة العربية عدد ٤٢٥ إبريل ٢٠١٢.
- نشرت له العديد من المقالات الشعبية في الجرائد والصحف المصرية.
- له كتاب تحت الطبع بعنوان «طقوس الخصوبة».

أشرف أيوب معوض

ملحق
الصور



(شكل ١) منظر عام للدير



(شكل ٢) منظر عام للدير



(شكل ٣) صورة القديس الأنبا شنودة



(شكل ٤) صورة القديس الأنبا شنودة



(شكل ٥) زفة الأيقونة



(شكل ٦) زفة الأيقونة



(شكل ٧) الهتافات في زفة الأيقونة



(شكل ٨) الصلاة والتشفع أمام أيقونة القديس



(شكل ٩) إيقاد الشموع أمام أيقونة القديس



(شكل ١٠) إيقاد الشموع أمام أيقونة القديس



(شكل ١١) تعميد الأطفال



(شكل ١٢) تقديم النذور في المولد



(شكل ١٣) بائع الفول السوداني والحمص في المولد



(شكل ١٤) بائع الفول السوداني والحمص في المولد



(شكل ١٥) بائع الصور المسيحية في المولد



(شكل ١٦) الدحرجة من جبل القديس رغبة في الإنجاب



(شكل ١٧) زيارة مغارة القديس لنيل البركة



(شكل ١٨) الوشم في المولد



(شكل ١٩) الوشم في المولد



(شكل ٢٠) الوشم في المولد


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية